

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
والا كنا له لعاثين
مَنْ يَشْرَأْ حَتْمًا
فَلْيَسِّرْهُ
مَنْ يَسْرِعْ
فَلْيَسِّرْهُ
مَنْ يَسْرِعْ
فَلْيَسِّرْهُ

د. كاثرينا ممسين

جوته .. والإسلام

رؤية قديمة لعالم معاصر

ترجمة
شيرين حامد فهمي

مكتبة الشرق الدولية

جـوته.. والإسلام

رؤية قديمة لعالم معاصر

د. كاثرينا ممسين

ترجمة: شيرين حامد فهمي



جوته.. رؤية قديمة لعالم معاصر

«الشرق والغرب لم نعد نستطيع فصلهما»، هذا ما كتبه جوته فى عام ١٨٢٦م فى الجزء الثانى من تراجيدى «القبضة» أو «فاوست»:

من يعرف نفسه و غيره

سيعرف هنا أيضاً

أن الشرق والغرب

لن يفترقا أبداً

هذه الكلمات تخص «القبضة»، وهى من أعظم الأعمال الأدبية التى كتبها «جوته». ذلك الشاعر الأديب - الذى كان «يعرف نفسه» جيداً، وهو فى عامه السابع والسبعين، الأمر الذى ولّد لديه الإدراك العميق بأن «الشرق» (والذى كان يمثل فى هذه الحالة العالم العربى بالدرجة الأولى) هو المحرك الذى كان طالما يثير تلك العبقرية الفنية التى تمثلت فى «القبضة»، حيث كان يستمتع دوماً باستخدام الصور الإبداعية والألوان

الجمالية المستوحاة من الشرق، والتي لم يكن لها وجود فى الشعر الغربى من قبل . ومن ثم، قدم لنا «جوته» - فى الجزء الثانى من «القبضة» - خليطاً منسجماً رائعاً، يجمع بين المكونات الغربية والمكونات الشرقية النموذجية .

لم يدُرْ فى خلد «جوته» - فى حديثه عن الشرق والغرب - مسألة «إما . . أو» . فالعالمان بالنسبة له لم يكونا منفصلين، وهو كمفكر وكشاعر غربى، أدرك جيداً - فى قرارة نفسه - بأنه مدين، وبشدة، إلى الشرق، الذى أوجد لديه ذلك الثراء الروحى . وقد أثبت وبرهن المقطع الشعرى الرباعى أعلاه، إمام «جوته» ومعرفته بعدم وجود أى انفصال بين الشرق والغرب؛ وقد عاد الشاعر الأديب ليؤكد هذا المعنى ثانية، عندما قام بإضافة أربعة أبيات أخرى، التى دعت البشر جميعاً إلى التحرك بخفة ومرونة - ذهاباً وإياباً - «بين الشرق والغرب»، بحيث يصير هناك عملية «توازن» بين العالمين :

وبودى أن أتأرجح بفكر متفتح

بين هذين العالمين

فالتحرك بين الشرق والغرب

هو الأفضل !

إنه لمن الضرورى أن نتحرك بين العالمين بتعقل وهداية، وأن نزن الأمور بحكمة وتمهل، بتأن وروحانية، باتساع فى الأفق وفى الوقت .

فى ظل هذا الشرط فقط ، يمكن للعلاقات بين الشرق والغرب أن تصل إلى «الأفضل» .

بهذه الأبيات ، استطاع «جوته» - المُعلم القديم - أن يُعلى من توجهه «الغربي - الشرقي» ، فينقله من مجرد رؤية إلى برنامج يلوح فى الأفق . وهذا ما تعبر عنه الأبيات التالية ، التى كان قد كتبها على غلاف «القبضة» :

وهكذا الغرب مثل الشرق

فتذوق ما هو مجرد برىء .

اترك الشواء، اترك القشرة،

وأجلسُ نفسك عند صحن طحين :

ولا تكره هذه القصعة

كما نرى هنا ، يدعو «جوته» أهل بلده إلى الجلوس ، بثقة ، بجوار ذلك الطحين الكبير للأدب العالمى ، ومن ثم عدم الاكتراث بتلك «القشرة» غير المعهودة - التى تمثل الإطار الخارجى للأدب الشرقى - وإنما الابتهاج بما هو «مجرد» و«برىء» فى ذلك الصحن الكبير . مثله مثل عدد غير كبير من الألمان ، كان «جوته» يدرك جيداً الدعم الهائل ، والسند الضخم ، الذى قدمته الثقافة العربية - خاصة فى مجال الشعر - للأدب

الألماني، بل للأدب العالمي ككل . لقد كان يعترف اعترافاً صريحاً - لا يخلو من شكر أو تقدير - بذلك الفيض الذي أفاض به الشرق، وجاد به على أوروبا؛ الأمر الذي يستلزم منا اليوم، تجديد وإنعاش ذاكرتنا بخصوص هذا الدين الثقافي، وإعطاء العرب حقهم الذي يستحقونه، ومكانتهم التي يستحقونها عن جدارة في الأدب العالمي؛ وهذا عكس ما كان يحدث حتى هذه اللحظة.

وفي هذه المرحلة الزمنية، التي نعيشها اليوم، والتي نشهد فيها مواجهات ظاهرة بين الإسلام وبين العالم الغربي، نجد أنه من المناسب ومن المنطقي - في هذا الوقت بالذات - التأمل والتفكير في موقف «جوته» تجاه الدين الإسلامي، وتجاه مؤسسه النبي محمد ﷺ؛ ذلك الموقف الذي أشار إلى وجود احتمالات للتواصل السموح والنقاش الإنساني مع الإسلام. وفي جميع الأحوال، كان الموقف الذي اتخذه «جوته» تجاه الإسلام خالياً تماماً من التطرف الأصولي. وكان بدلاً من ذلك، يصبوب أعيننا ويلفت أنظارنا - وخاصة في «ديوان الغرب والشرق» - إلى عوامل التآلف والانسجام بين الثقافات المختلفة، متجنباً عوامل الفرقة، التي كان من المعهود إثارتها في عصره. ربما يكون من الضروري ومن اللازم في هذه الحقبة التاريخية بالذات، أن نستعيد أفكار «جوته» إلى الأذهان، كسبيل لإعادة فتح فرص حقيقية للتقارب بين العالمين، كما كان يدور في خلد «جوته» دائماً .

منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ونحن نشهد حدة متصاعدة فى الاستقطاب بين العالمين الإسلامى والغربى، والتى تولدت نتيجة للفقر الواضح فى فهم ثقافة الغير، وفى فهم دين الآخر. هذا بالإضافة إلى افتقاد النضج الكافى للرؤية الكاملة من قبل الجانبين، الأمر الذى من شأنه أن يهدد باتساع الفجوة الثقافية بين العالمين، على المدى البعيد، مما يجعل الحدود بينهما تأخذ بعداً عدائياً خطيراً؛ ليسقط العالم بعدها فى دوامة من الصراع، لا تنتهى أبداً. هل كان «جوته» يتنبأ بتلك الصراعات، التى نلمسها اليوم بين كل همسة ولحظة؟ هذا سؤال، بالطبع لن نستطيع التعرف على إجابته. إلا أننا - على الوجه الآخر - نستطيع أن نتأكد، وأن نتيقن، من سبق هذا الرجل فى إدراك ضرورة وحمية التساوى السلمى بين «الشرق» و«الغرب»؛ وكذلك من سبقه فى البحث - بل والعثور - عن طرق للتوسط بين العالمين؛ وهى طرق يمكن سلكها وتطبيقها فى زماننا الحالى. زمن العولمة والعالمية. نحن عندما نتحدث عن «جوته»، فنحن لا نتحدث فقط عن أنجب الأدباء الألمان، وأكثرهم عالمية، بل نتحدث أكثر عن الأدب، وعن تاريخ الديانات؛ نتحدث أكثر عن الطبيعة الإنسانية، التى تظل ثابتة على حالها، مهما كانت الظروف، إن الطبيعة الإنسانية تمثل مجال الإبداع لدى «جوته»، حيث سطع فيه عن جدارة... أكثر من أى مجال آخر.

وإذا ألقينا نظرة عابرة إلى الوراء، لرأينا ولعرفنا كيف كان الأدب الألمانى مديناً إلى نظيره العربى بالشكر والعرفان. صحيح أن تقدم العرب

- فى القرون الأولى من الإسلام - فى جنوب غرب وجنوب شرق أوروبا قد أدى إلى تماس عدائى بين الفريقين؛ وصحيح أن اندلاع الحروب الصليبية الأوروبية، التى اتخذت من القدس هدفاً لها، قد أدى إلى احتكاكات مريرة بينهما، مع عواقب أكثر مرارة، إلا أن هذه الاحتكاكات المريرة قد أسفرت أيضاً عن نتائج إيجابية؛ منها تغلغل وتسلل تلك الصور الإبداعية العربية الجميلة - حينذاك - فى داخل الملاحم البطولية الألمانية؛ مثل ملحمة «شبيل مان - Spielmann» الشهيرة. فلا عجب أن نعرف مثلاً، بأن «هاينريش فراوين لوب - Heinrich Frauenlob» قد استمد إطاره القصصى من «ألف ليلة وليلة»، ولا عجب أن نعلم، بأن «العرب» كان لهم دلالة كبيرة فى الملحمة الألمانية العظيمة، التى كتبها «فولفرام فون إيشينباخ - Wolfram von Eischenbach»، ولا عجب أن نكتشف، بأنه منذ الحروب الصليبية، كانت ملحمة «شبيل مان» قد ازدحمت بالقصص ذات الطابع الخيالى، الملئ بالسعادة الغامرة لكل ما هو عجيب وغريب؛ باختصار، أن ملحمة «شبيل مان» قد حفلت بتلك الأشكال الأدبية التى وُجدت بالفعل فى المخطوطات العربية القديمة لقصص «ألف ليلة وليلة». إلا أنه - بالرغم من كل ذلك - كان رد فعل الألمان، كجميع الشعوب الأوروبية، باستثناء الإسبان، هو طمس وحذف ذلك الدين الثقافى تجاه العرب، من العقول، بل من الوعى الجمعى ككل؛ فتم نكران تأثير الثقافة الإسلامية على ثقافتهم بمتهى السهولة، وتم الجحود بالفضل الإسلامى على علومهم بمتهى البساطة.

إلا أن الأمر لم يخل من الحالات الشاذة التي يجب - بكل تأكيد - أن تسترعى انتباهنا. فقد يأتي «جوتهود إفرايم ليسينج» (١٧٢٩ - ١٧٨١ م) ليتربع على عرش القمة، حيث قام في روايته الدرامية المعروفة «ناتان الحكيم» (١٧٧٩ م) بوضع الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية، المسيحية، الإسلام) على أرض واحدة، مساوياً بين بعضها البعض. ولم تقتصر نظرة «ليسينج» هذه - التي تتسم بالتسامح - على هذه الدراما، بل امتدت إلى كتاباته الأخرى. وكذلك لدينا «يوهان جوتفريد هيردير» (١٧٤٤ - ١٨٠٣ م) الذي استطاع - بالرغم من الفكر הפרוטستانتى الذى تربى عليه - أن يثبت نفسه كمؤرخ ثقافى غير منحاز للقوالب الموروثة المؤدجلة، الأمر الذى تجلّى، بمتهى الشجاعة، فى عمله حول «تأثير الفنون الشعبية على عادات الشعوب فى العصور القديمة والحديثة»؛ فقال: «حينما غمر العرب جزءاً من أوروبا - لقيموا فيها مئات السنين - لم يكن بوسعهم أن يخلفوا شيئاً وراءهم... إلا الآثار... آثار فنونهم الشعرية، وكذلك آثارهم العلمية... إلا أن فنونهم الشعرية كانت أعمق أثراً من علومهم... تلك العلوم التى نهلنا معظمها من أيديهم». ولم يقف «هيردير» عند هذه «المفاجأة»، بل أكمل قائلاً: «لقد هبت على أوروبا رياح التذوق... تذوق الجمال، المغامرات، الدين، الشرف... لقد تسربت الآثار من الجنوب إلى الشمال بمتهى الخفة والرشاقة؛ لتزرع نفسها فى تربتنا... جنباً إلى جنب مع الدين المسيحى... جنباً إلى جنب مع تذوق أهل الشمال... ذلك التذوق الذى

يتميز بكل ما هو كبير وضخم؛ فيغلب عليه الشكل المُجسم المهول، مثل «الملك أريوس ومائدته المستديرة» و«كارل الكبير»؛ هذا غير القصص الفرنسية مهولة الحجم والمحتوى، التى تتحدث عن الفرسان والجان. وهذا راجع بالأساس إلى عقلية الشعوب الأوروبية التى تشكلها مواصفات «الحجم» و«المساحة» أكثر من أى شىء آخر...ومن ثم، كان على هذه العقلية «الثقيلة» أن تستقبل تلك السمات العربية الخفيفة، وأن تتعامل مع ذلك الشذا العربى الرقيق...مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بالغطاء الثلجى».

إضافة إلى هذه الآثار العامة التى خلفها الأدب العربى، ذكر «هيردير» أمثلة مفصلة، بدت لنا فى ثنايا صفحات التاريخ العائد إلى القرون الوسطى: «لقد حفلت العصور الوسطى بالأحداث العربية، ثم امتزجت تلك العصور مع الأساطير القادمة من الجنوب، الأمر الذى أعطى زخماً وانتعاشاً لروح الفكر والخيال عند الشمال تجاه الجنوب. . فصار الأخير مصدر إثارة وتشوق مما حرك الوجدان الأوروبى تجاه المنطقة. . ومن ثم تقبله للحروب الصليبية». إن الحروب الصليبية، كما يكمل «هيردير»، «شكلت أثراً مهولاً على عادات الأوروبيين وأقوالهم؛ فقد بات هناك قصص وروايات «خارقة» لا حصر لها؛ صار هناك فارق واضح بين العالم الملموس وبين عالم الجان. لقد امتزجت روح الفارس الأوروبى بروح الشرق. . وانتشرت روايات المغامرة والخوارق التى أوصلت أوروبا إلى حد الذهول».

باختصار، لقد تناول «هيردير» القرون العشرة الأولى التى تلت ظهور الإسلام، حيث سجل فيها الامتزاجات اللانهائية بين المملكة الفكرية العربية ونظيرتها الأوروبية. ومثل «هيردير»، جاء «ألكسندر فون هومبولدت» - وهو أديب أوروبى كبير (١٧٦٩ - ١٨٥٩م) - ليسجل هو أيضاً ملاحظته التى تقول إن أمل «جوته»، فى امتزاج الشرق مع الغرب، لم يكن له وجود حقيقى فى ذلك الوقت، أى لم يكن مشاركاً ... إلا أنه بالتأكيد لم يكن مستبعداً بالقدر الذى نشهده اليوم. لقد بنى «هومبولدت» رؤيته على وجهات نظر «هيردير» و«جوته»، ليخرج إلينا بعمله الرائع فى عام ١٨٤٧م، الذى سماه «الكون» أو Kosmos. فى هذا العمل، أوضح «هومبولدت» كيف أدلى العرب - بجهد غير عادى - فى التطور الثقافى عمومًا، وفى القفزة الثقافية للقصص والروايات الأوروبية خصوصًا؛ معلناً أن الشرق الأوسط مصدر أساسى ومنبع أصيل، لا غنى عنه، للثقافة الأوروبية. والحق يقال، إنه حتى هذه اللحظة، لم يكتب لهذا العمل أن يرى النور إلا بالألمانية. أما دون ذلك، فلم يحدث أن صدرت عنه أى ترجمة، ولو حتى بالعربية. ومن ثم، فإن الأمر يستحق - بالتأكيد - طى هذا النسيان أو هذا الإهمال الذى تراكم على هذا العمل قرابة قرنين من الزمان. وإن معرفة النص الذى كتبه «هومبولدت» ونشره - بالإضافة إلى ما كتبه «ليسينج» و«هيردير» و«جوته» - يمكن أن تساهم فى صد تلك التحيزات الجائرة التى تولدت منذ القرن السابع عشر ضد الشرق، والتى ما زالت جماهير القراء

تتجرعها حتى هذه اللحظة. ففي القرن السابع عشر، كانت أشعار «الباروك» حافلة بالباس الشرق لباس القهر والعنف والظلم والغلظة والثراء اللانهائي والبهرجة المستفزة؛ لتعطى فى النهاية صورة مزيفة وغير حقيقية عن الشرق؛ فيتكون لدى القارئ الأوروبى تشوق جارف نحو ذلك الشرق الغريب المزيّف؛ وفى نفس الوقت تحيز وتحامل ضده.

ومن الجدير بالذكر، أن ثقافة «القولبة» هذه - أى وضع شىء فى قالب واحد بطريقة متعسفة وظالمة - لم يقتصر مدها على القرن السابع عشر فقط، بل امتد أيضاً إلى وقتنا هذا، وإلى لحظتنا هذه، مخترقاً الأدبيات البسيطة بطرق متعددة؛ فيعضد من شأن التصورات الظالمة حول الشرق. ولعل «كارل ماى» يعد أحد هؤلاء الأدباء، الذين كتبوا عن العالم العربى انطلاقاً من وجهات نظرهم «الخاصة». لقد استطاع «ماى» - عبر جرعاته المتواصلة لقرائه الشباب - أن يصل إلى جمهور عريض، قوامه ٤٣ مليوناً.

خلاصة الأمر، أن إلقاء نظرة عابرة على وصف المسلمين العرب من قبل «كارل ماى» بصورة خاصة، ومن قبل الأدباء الألمان بصورة عامة، يعكس لنا مدى الظلم الذى تعرض له المسلمون العرب فى تلك الكتابات؛ حيث لم يكن العدل حليفاً لهم إلا نادراً... إلا فيما كُتب لأدباء أمثال «ليسينج» و«هيردير» و«جوته» و«روكيرت» و«هومبولدت».. وآخرين غيرهم معدودين، تميزوا جميعاً بالحرفية والتخصص مثلما تميزوا بالشرف والأمانة.

اكتشاف الشعر العربي:

ماذا كان يعلم الكتّاب والمؤلفون الألمان عن العرب . . . عن أدبياتهم؟ وماذا يعلمون الآن؟ فى بداية القرن الثامن عشر، وصل أول عمل أدبى عربى إلى القارة الأوروبية، إلا أنه وصل فى ثوب فرنسى: لقد كانت الرواية العربية المشهورة «ألف ليلة وليلة» باللغة الفرنسية، التى ترجمها المستشرق الفرنسى المعروف «أنطوان جالاند» (١٦٤٦ - ١٧١٥ م). وهكذا اندفعت تلك الشرارة من فرنسا؛ لتبث آثارها فى شتى بقاع الأرض. وكان الانتشار الواسع، الذى لاقاه هذا العمل الأدبى، أمراً غير معهود فى ذلك الوقت، إذ لم يكن هناك - بجانب كتاب الإنجيل - كتب تُذكر، تبلغ ذلك الصيت الذى نالته تلك الرواية العربية. بلغة أخرى، لقد ذاع صيت «ألف ليلة وليلة» فى وقت كان فيه كتاب الإنجيل هو الكتاب الوحيد المترجع على الساحة الفكرية، والمتداول وسط الجميع، باستثناء كتب نادرة وقليلة جداً، يُصعب ذكرها أو تذكرها. لقد استطاع هذا العمل الخارق أن يكتسب أهمية مباشرة من خلال انتشاره الواسع فى معظم البلدان الثقافية فى أنحاء أوروبا، لدرجة أنه لم يمر على أحد من تلك البلدان إلا ويكون قد قرأها مرة واحدة على الأقل. . . على أن تكون هذه المرة حافلة بالسعادة والإثارة فى آن واحد. كما استطاع هذا العمل أن يكتسب أهمية غير مباشرة، حينما أتاح لكثير من الأدباء استخدامه كمادة ثرية للنهل منها؛ تلك المادة التى لا يذهب سحرها أبداً، مهما مرت عليها السنون والأعوام. باختصار، إنَّ السحر الذى عكسته رواية "ألف ليلة وليلة" - ذلك السحر غير العادى - كان من العظمة التى لا

يمكن نكرانها على أية حال ؛ لدرجة أنه يصير من الجائز ومن المنطقي وضعها مع «ملاحم هومير» أو «دراما شكسبير» على قدم المساواة، بالرغم من اختلاف المحتوى اختلافاً تاماً .

كتاب ألمان كثيرون . . . ومثلهم شعراء ومؤلفون . . دخلوا بحماسة شديدة في خندق «ألف ليلة وليلة»، ذلك الخندق المحظور آنذاك . فكان هناك «جوته»، «ماكسيمالين كلينجير»، «يوهان هاينريش فوس»، «جون بول»، «أوجوست فون بلاتين»، «جورج كريستوف ليشتينبيرج»، «فريدريش روكيرت»، «يكارل ميرمان»، «فيلهيلم هاوف»، «إيه . تيه . آه . هوفمان»، «كريستوف مارتين فييلاند»، «هوجو فون هوفمان شتال»، «شتيفان چورچ»، «راينر ماريا ريلكه»، «چيورچ فريدريش يونجر»، «هيرمان هيسه»، «هيرمان بروخ» . . هؤلاء جميعاً أظهروا تبنياً واضحاً وملموساً لرواية «ألف ليلة وليلة» ؛ فنشأت تجارب أدبية كثيرة على أثر ذلك التبنى .

ولم يقتصر هذا الولع على الماضي . . بل امتد أيضاً إلى الحاضر، إلى يومنا هذا . وإن مثلاً واحداً من قصائد الشعر الغنائي الألماني الحديث يمكن أن يُرينا جميعاً عظمة ذلك التأثير الخرافي الذي مارسه تلك الأعجوبة الأدبية على شعراء ومؤلفي ألمانيا الحالية . فهي أشعار «أنا ماريا شيميل» تبث لنا ذلك الولع، قائلة :

لقد جعلتني أحلم

في ألف ليلة وليلة :

مدينة التوابل والذهب

الآن استيقظت وأفقت

فذهبت الألوان وبهتت

إلا أنه ما زال هناك البخور

يعيش ويقطن فى الطرقات

نحن لن نستطيع إحصاء الأسباب وراء تلك التأثيرات الموهلة التى خلفتها «ألف ليلة وليلة» ؛ فهى كثيرة وعديدة، لا نهاية لها : ولعل الطابع الديموقراطى لهذه الرواية هو الذى أدى بالفعل إلى ذلك الاستقبال الحميم لتلك النوعية من القصص من قبل الأدب الكلاسيكى الألمانى ! فقد أشار «كريستوف مارتين فييلاند» (١٧٣٣-١٨١٣م) إلى ذلك، موضحاً أن «ألف ليلة وليلة» خاطبت جميع الدوائر : «جميع الأعمار، جميع الأجناس، جميع المستويات، الشباب والعجائز، المتعلمين والأميين، الأغنياء والفقراء، العاملين والعاطلين... كل هؤلاء يجتمعون حول الراوى ؛ ليستمعوا إليه بشغف ونهم، وهو يسرد لهم العجائب والمعجزات». وتناغمًا مع هذا رأى، نجد «جوته» واقفًا . . واصفًا إياها باقتضاب، قائلاً : «المتعلم وغير المتعلم يهيم شوقًا بها» .

الخيال، السحر، الجان . . . كلها أدوات تلعب دوراً مركزياً وأساسياً فى الرواية ؛ ولكن هذا ليس معناه طغيان الغموض والتعقيد والغلظة، بل

العكس هو الصحيح : فكل ما هو غير ممكن يُعرض بمنتهى البساطة ،
بمنتهى الوضوح ، بمنتهى الرشاقة . ومن ثم ، فلا مكان للألوان
السوداوية ، ولا مكان للضبابية أو السرمدية التى اعتاد أهل الشمال على
استخدامها .

فى القرنين الثامن والتاسع عشر ، لعبت «الإنسانية» فى «ألف ليلة
وليلة» دوراً عظيماً ومؤثراً ؛ فإذا تصفحتها ، وجدت نفسك تتحرك فى
وسط مجتمع حضارى من الدرجة الأولى ، مما يدل على ثقافة راقية
قويمة ، استمرت عصوراً مديدة لكى تفرز لنا فى النهاية ذلك المجتمع
الحضارى الرفيع . فى «ألف ليلة وليلة» نجد الحوارات تُدار بين مختلف
المخلوقات : تارة الإنسان مع الإنسان ، وتارة الشبح مع الشبح ، وتارة
الجان مع الإنسان ، وتارة الجان مع الشبح . كلها حوارات تدور فى
أفلاك متعددة ومختلفة : مرة فى فلك الضعف والرقعة ، ومرة أخرى فى
فلك الحذر والحيلة .

لا شك أن هذا العمل كان ذا ملمس حضارى متميز ، تجلّى بوضوح
فى جميع أبطال وشخصيات الرواية ، التى انتمت جميعها إلى ثقافة عالية
وسامية . فنجد مثلاً حامل الأمتعة يدير حواراً ثرياً للغاية مع سيدة من
المجتمع الراقى ، بغض النظر عن الفارق بينهما ؛ الأمر الذى يدل على
أخرى على الثقافة الرفيعة المتميزة التى اتصفت بها القرون العربية
الوسطى ؛ تلك الثقافة التى أعلنت من شأن المُعلم العالم ، فجعلته فى

أعلى مكانة يمكن أن يصل إليها بشر؛ بل جعلته من خير وأفضل نوعية البشر . ولذا كانت المعرفة من أهم الاعتبارات التي شحذت انتباه العرب ؛ وأكبر دليل على ذلك ، ما كانت تسرده وتصوره قصص الحب العربية ، حينما كانت تصف البطل الجسور - سواء كان أميراً أو ابناً لتاجر - بكونه متعلماً ومثقفاً من الدرجة الأولى ؛ فتصير أهم مميزاته : إلمامه بلغات عدة ، وحبه الشديد للشعر ، وتمكنه منه .

وقد انسحبت هذه الثقافة - بوجه خاص - على شخصية المرأة في «ألف ليلة وليلة» . ومن ثم ، فلم يكن عجيباً أبداً ، أن تصدر أكثر الكلمات اتزاناً ونضجاً من النساء . إن الرواية أظهرت ذكاء وفطنة ولباقة الراوية ، التي اعتمدت كثيراً على ضلالتها ونجابتها في إدارة الحديث ، وفي اختيار الكلمات . وليس أدل عن ذلك من كياستها التي أبدتها في أثناء حديثها مع السلطان الفظ ، ومخاطبتها له من خلال «العلاج الحواري» ، مما يضرب بالنظرة السائدة والمهينة عن المرأة العربية ، التي لا تخلو من الازدراء ومن الاستهانة بقدراتها ، عرض الحائط .

يبقى أن «ألف ليلة وليلة» لم تتواجد فقط في ظل عالم من المثاليات الحاملة المرتفعة عن الواقع وأحداثه ، ولم تتواجد فقط في عالم من السحر و«الفانتازيا» لتطفئ ظمأ المستمعين وتعطش القراء ؛ بل إنها تواجدت أيضاً في ظل عالم محدد تاريخياً ومعروف جغرافياً ؛ في ظل عالم مغلق على نفسه من قبل مناخ ثقافي معين . مناخ تلعب فيه قوى الروح

دوراً محورياً ، فيتحد العقل والروح سوياً ليقوما بتجديد الأخلاق والقيم معاً ؛ إذ أن الراوى العربى كان فى نفس الوقت مريباً ؛ ليشكل فى النهاية عالماً يسوده نظام أخلاقى قويم ؛ وهو العالم الذى تريده الراوية «شهرزاد» .

إن ولع الشعراء الألمان بـ«ألف ليلة وليلة» كان معروفاً ومتعارفاً عليه ، وقد أجادوا التعبير عن ذلك بأنفسهم ، إلا أنهم لم يصلوا بتعبيرهم إلى الدرجة التى وصل إليها «هوجو فون هوفمان شتال» (١٨٧٤ - ١٩٢٩م) الذى كتب قائلاً فى عام ١٩٠٦م : «عندما كانت قلوبنا سابحة فى مرحلة الشباب ، وذواتنا سابحة فى وحدتها وعزلتها ، إذا بنا نجد أنفسنا فى مدينة كبيرة . . تغطيها الأسرار والأخطار والإثارة فى آن واحد . . » . وفى مرحلة متأخرة من حياته ، كتب «هوفمان شتال» عن «ألف ليلة وليلة» قائلاً : «هذا الشعر بين أيدينا يمثل عالماً بأكمله . . وبإله من عالم حافل بشتى الألوان والصور ، بالعمق فى الفكر ، بالقفزات الخيالية ، بالوثبات غير الواقعية ؛ وفى نفس الوقت بأصناف شتى من الحكمة والبصيرة . هنا تجد ما لا يعد من القصص المسلية ، وما لا يحصى من أقوال الحكماء ، وما لا يتخيل من المعجزات والخوارق الطريفة والأحلام . هنا تجد كرم الضيافة على أصوله ، وتوازن العقل على أكمله ؛ ليجتمع فى النهاية فى شخص واحد . . كان من الطبيعى - فى وسط هذا العالم العجيب - أن تثار حواسنا ، وأن يشحذ اهتمامنا من مفرق رءوسنا إلى أخمص قدمينا ؛ الحقيقة أننا نعيش هنا كل شىء ، فنشعر ونحس به ،

مما يجلب إلينا المتعة...إننا نتحرك هنا من أعلى العالم إلى أدناه؛ من الخلفاء إلى البرابرة، من الصياد الفقير إلى التاجر الأمير...إنها الإنسانية بمختلف صورها؛ تحفنا، فتحملنا بأمواجها في خفة ورشاقة.

وكذلك تطرق «هوفمان شتال» إلى سمة التدين الملحوظة جداً في «ألف ليلة وليلة»، فقال: «إن وجود الإله كان مسيطراً على جميع هذه الأمور والأشياء؛ فكل شيء - سواء كان إنسانياً، حيوانياً، أو حتى شيطانياً - يتحرك في ظل القداسة الموجودة في السماء. فكما يتحرك الهواء، كانت تتحرك المشاعر الربانية، وكان يتحرك الوفاء والكرم من أول الرواية حتى نهايتها».

أما عن استخدام اللغة في «ألف ليلة وليلة»، فقد لاحظ «هوفمان شتال» الآتي: «هذه اللغة تحتوى على كلمات متحركة، وكذلك على كلمات صلبة وواقفة.. إلا أنها - في النهاية - كلمات نابعة من القدم. استخدمت في عرض حياة مترفة باهرة، ولكن - في نفس الوقت - في عرض ممارسة بدوية بسيطة. ونحن طبعاً أبعد ما نكون عن ذلك العالم الطبيعي؛ فبغداد والبصرة ليستا مسكناً مناسباً لبطاركتنا الذين لا يستطيعون العيش في خيامها». وبناء على تلك الاستحقاقات والمؤهلات الشعرية الرفيعة، فإنه ليس غريباً على الإطلاق أن نجد «جوته» - بدءاً من بلوغه سن الشباب - يشعر بحميمية شديدة تجاه بغداد «ألف ليلة وليلة»، وكأنها بيته الذي يسكن إليه؛

وكذلك ليس غريباً على الإطلاق أن نجد شخصية «شهرزاد» مصدر إلهام لـ «جوته»، لدرجة قيامه باقتباس العديد من أحاديثها، وتبنيها في الكثير من أعماله.

ولم يقتصر اهتمام «جوته» على أهداف ومسار القصص الفردية في «ألف ليلة وليلة»، إنما امتد اهتمامه أيضاً إلى أمور أكثر عمومية ولكنها ذات خصوصية بالغة؛ مثل الطريقة المسترسلة التي كانت تقص بها «شهرزاد» حكاياتها؛ وقد نجد هذه الطريقة متجلية في أعماله، مثل «محادثة بين المهاجرين الألمان». لم يتأثر «جوته» بدور «شهرزاد» كمؤلف فقط، وإنما تأثر به أيضاً كمخرج، مثلما حدث في إخراجة للجزء الثاني من تراجيديا «فاوست» أو «القبضة»: وبالتحديد منذ لحظة إعمال السحر حول الكنز إلى لحظة المواجهة بين «فاوست» و«هيلينا». وكذلك استخدم «جوته» النموذج القصصى والأسلوب السردى لـ «ألف ليلة وليلة» في كتابة «ليلة فالبورجيز»^(١)؛ ويجوز القول إنه لولا اقتباسه لهذا النموذج، لما استطاع أن يكتب «ليلة فالبورجيز». وأخيراً، فإنه ليس من العجيب أن تصير «شهرزاد» مصدر ثناء القيصر الألماني الذي وصفها بـ «الرئيسة».

إن «ألف ليلة وليلة» كانت بالنسبة إلى «جوته» كتاباً للحياة، يقرأه على امتداد العمر مهما طال؛ مثله مثل كتاب الإنجيل، وكتب «هومير»،

(١) فالبورجيز هي راهبة إنجليزية ولدت في القرن الثامن عشر؛ كان لها جهود تبشيرية في ألمانيا، ويقال: إنها كانت تمنع السحر الأسود.

و«شكسبير»، و«موليير»... تلك الكتب القيمة والنادرة التي تنتمى إلى الأدب العالمى. ومن ثم، كان «جوته» دائم العودة إليها، منشغلاً بها فى جميع فترات حياته، حتى وافته المنية.

لقد ظهر عمالقة الحضارة والثقافة العربية فى كتابات «جوته» و«هيردير»؛ ظهوروا وتألقوا حينذاك بصورة لم يكن لأحد أن يتخيلها اليوم. فإذا قرأت رسائل وخطابات كل منهما، ستدرك إلى أى مدى وصل اشتياق الكثير من الناس - الذين كانوا يعيشون حولهما - إلى تعلم اللغة العربية فى المدينة الجامعية الألمانية «ينا»؛ وإلى أى مدى كان اهتمامهم بالرحلات التى كان أقرانهم يقومون بها فى البلدان العربية.

حينما أعلن «جوته» فى «ديوان الغرب والشرق» أن «بغداد ليست بعيدة للمحبين»، كان ساعتها قد امتلأ ثقة وشغفاً بهذه المدينة الثقافية المتميزة، التى اعتمد تميزها فى الأصل - كما يخبرنا «جوته» فى «ديوان الغرب والشرق» - على تاريخها، خاصة فى أكثر الحقب إشعاعاً وتوهجاً عندما كان للبرامكة^(١) دور مؤثر فيها، من الحفاظ على تألق الفن الشعرى، إلى الحفاظ على فن الكلام والحديث، إلى إثبات ذكائهم العالمى، وشخصيتهم البارزة فى المحيط السياسى. وللعرب قول مأثور اسمه «الجمال أيام البرامكة»، وهو ما وصفه «جوته» فى مقولة له - لافتة

(١) البرامكة مفردا برمكى أو حريف، وهى لفظة لها مدلولات حميدة مثل الكرم والتعاون وحب النظام والنظافة، وقد حكموا بغداد لفترة، وهم تراث طويل من التقاليد.

للانتباه وفى نفس الوقت سرية - فقال : «إنه ذلك الوقت حيث كانت الكائنات الحية متعشة . . . ديناميكية . . . مستيقظة . . . متوهجة؛ فإذا مر علينا ذلك الوقت، نصير فى اشتياق شديد إلى عودته ثانية. فمهما مرت السنون والأعوام، نظل على أمل أن تنبثق تلك الفترة الذهبية مرة أخرى . . . ربما فى أماكن غير معروفة، ولكن تحت ظروف متشابهة».

فى «ديوان الغرب والشرق»، ركز «جوته» بطريقة غير مباشرة على بغداد؛ فوضعها - كمدينة عربية معروفة ذات مكانة علمية معروفة - على نفس الدرجة مع مدينة «فايمر» الألمانية. لقد كان يدرك جيداً بأن بغداد تزخر بمؤسسات علمية ثرية ومتميزة؛ وذكر ذلك فى أثناء استعراضه لحياة الشاعر الفارسى «سعدى» (١١٨٩ - ١٢٩١م) الذى انتقل من شيراز «لينهل الدراسة والعلم من بغداد». لقد بلغ شغف «جوته» ببغداد فى ذلك الحين، أنه لم يستطع منع نفسه من حسد ذلك الرجل البريطانى D.C.Rich - الذى كان مقيماً فى بغداد ومتمرساً فى علم اللغات - لتمكنه الفذ من فنون الخط العربى. ولم يتوقف شغفه عند هذا الحد، بل تحدث - بنفس هذا الحس المرهف - عن (١٥٨٦ - ١٦٥٢م) Pietro della Valle الذى انتقل أيضاً إلى بغداد؛ ليتعرف هناك على سيدة، آية فى جمال الشكل والروح، فيحبها حباً شديداً، حتى قبلت فى النهاية الزواج منه، لتصير بعدها زوجة أحد النبلاء الرومانيين. إلا أن «جوته»، عندما كتب هذا البيت «بغداد ليست بعيدة للمحبين»، لم يحدث أنه ربطه بـ «ألف ليلة وليلة» أو بقصة Pietro della Valle، وإنما ربطه بأبيات للشاعر التركى «نيدشاتى»، التى تقول :

إذا صار بينك وبين من تحب أكثر مما بين الشرق والغرب

فاجر فقط أيها القلب، فإن بغداد ليست بعيدة عن المحبين

هذه الأبيات قام «جوته» بمحاكاتها في أبيات الغزل التي كتبها إلى «سوليكة»، الموجودة في «كتاب سوليكة لديوان الغرب والشرق»، فقال:

هل أنت مفصول عن محبوبك

كما هو الحال بين الشرق والغرب

هل يجرى قلبك في كل الصحارى

هذا الموكب الذى نجده فى كل مكان

إن بغداد ليست بعيدة للمحبين

لقد أخفى «جوته» خلف «سوليكة» - وهو اسم عربى مستعار - المرأة التي أحبها صديقه «يوهان يعقوب فيليمير»، وهى المغنية الشاعرة المعروفة «ماريان فيليمير»؛ حيث قام «جوته» بنقلها - فى ظل خيالاته - إلى بلاد الرافدين (دجلة والفرات)، وهناك بدا له الأمر، وكأن «الهواء محمل بشذا الورود والرياحين».

وفى الحوارات الداخلية التى كانت تدور فى خلد «حاتم» - وهو الاسم المستعار لـ «جوته» فى «كتاب سوليكة لديوان الغرب والشرق» -

كانت بغداد قد تحولت إلى ذلك المكان الساحر الذى يتشوق المرء إلى زيارته بحرقه، بل تحولت إلى موقع تاريخى للشفاء من آلام الحب والأحزان. أما لماذا كانت بغداد بالذات هى مقر علاج أولئك المرضى، الذين اكتووا بآلام الحب وأحزانه؟ فإن الإجابة نجدها ببساطة فى تلك المقولة الغربية الشهيرة التى تقول: «أخذ الترياق من بغداد»، باعتبار أن بغداد كانت حينذاك تمتلك أفضل «ترياق» وأنجع دواء لمعالجة لدغات الحيات والثعابين. لقد حمل «جوته» ذلك فى وصيته؛ حملها فى رسالة تحتوى على عبارة مقتضبة تقول: «بمجرد أن تأتى بالترياق من بغداد، ينتقل المريض من حال إلى حال».

فى «فايمر» كانت لغة الاستمتاع الفنى قاصرة على القصص العربى، فكان هناك ولع شديد تجاه الأمثلة والمقولات العربية التى اهتم بها - على الأخص - «يوهان يعقوب رايسكه» (١٧١٦ - ١٧٧٤م)، حيث كان له باع كبير فى ترجمة الكثير منها إلى الألمانية. لقد ترجم المستشرقون الألمان حوالى ١٥ ألفاً من الأمثلة والمقولات العربية إلى الألمانية، إلا أن تأثيرها على الجماهير الأوروبية كان يعتبر ضئيلاً نسبياً إذا ما قارناه بكتابات «جوته» و«هيردير»، كما ذكرنا سلفاً. أما «رايسكه»، فكان له الفضل فى جذب الألمان المتعلمين - فى الشطر الثانى من القرن الـ ١٨ - إلى الأدب العربى، حيث كانت معرفته الضليعة بالعربية ظاهرة ظهور الشمس، لدرجة أن الرحالة «كارستين نيبور» (١٧٣٣ - ١٨١٥م)،

المعروف بجولاته ورحلاته في بلدان العرب، افترض يوماً بأنه في مقدور «رايسكه» فك رموز النصوص العربية التي كان العلماء العرب أنفسهم يعجزون، ساعتها، عن فكها. لقد كانت ألمانيا - في ذلك الوقت وفيما بعد - حريصة كل الحرص على استدعاء أولئك المستشرقين، غير العاديين، الذين يهبون أنفسهم ويكرسون أوقاتهم لنهل أكبر قدر ممكن من الأدب العربي... فلنعد فقط بذاكرتنا إلى الوراء، إلى المستشرق الفذ «فريدريش روكيرت» (١٧٨٨ - ١٨٦٦م)، أو ننظر إلى تاريخنا الحديث، إلى المستشرقة المبجلة القديرة «أنا ماري شيميل» (١٩٢٢ - ٢٠٠٣م)؛ لكي نتبين مدى صدق هذا الكلام.

ماذا نعلم نحن الآن - وماذا كنا نعلم كألمان - عن الشعراء العرب؟ من الشعراء العرب الذين كنا نعرفهم، والذين نعرفهم الآن؟ عندما ذهب «جوته» إلى الدراسة في «لايبتيش»، كانت ترجمة «رايسكه» لشعر «المتنبى» (٩١٥ - ٩٦٥م) قد ظهرت لتوها؛ لكي تخرج إلى النور؛ فيتأثر بها الشاب «جوته» - ذو الستة عشر عاماً - لدرجة أنه لم يتركها بدون إدراج بعض نفحاتها في عمله المعروف «فاوست» أو «القبضة». وحينما أبدع «جوته» بعدها «ديوان الغرب والشرق»، شغل نفسه مجدداً بأشعار «المتنبى»، بحياته وتاريخه.

لقد أجمع «جوته» و«هيردير» على ميل العرب الخاص إلى فنون الشعر؛ فها هو «هيردير» يعلنها صراحة في عام ١٧٧٨م، قائلاً: «منذ القدم والعرب معروفون بكونهم شعراء؛ لغتهم وعاداتهم نشأت بالشعر

وللشعر... عاشوا فى خيام بسبب تنقلهم الدائم من مكان إلى مكان... ولعوا بحب المغامرات إلا أن عاداتهم كانت تسير على وتيرة واحدة... بدلاً من التيجان لبسوا العمام؛ وبدلاً من الأسوار سكنوا الخيام... وبدلاً من القوانين الوطنية كانت الأشعار... وبدلاً من الحصون احتموا بالسيوف». بعدها مباشرة، كتب «جوته» ديوان الغرب والشرق الذى حمل فكرة «هيريدير»، ولكن فى شكل أبيات من الشعر:

نعم أربع

أنعم الله على الأعراب

بنعم أربع عِجاب

كيما يجوبوا الفلواتِ فَرحين

ويعيشوا فى رَغْدٍ هانئين

* * *

وهبهم العمامة التى تُزين

خيراً من تيجان القياصرة أجمعين

وخيمةٌ إليها يأوون

فى أى مكان يشاءون

* * *

وسيفاً يحميهم ويصون

أمنع من الصخور وأسوار الحصون

وقصيداً يطرب ويُفيد

تتصنت عليه الحسان الغيد

* * *

ومن اللافت للنظر، أن يتبنى «هيردير» وجهة النظر القائلة بأن أشعار العرب كانت أعظم أثراً على سلوكهم وعاداتهم من تأثير القوانين؛ فهذا هو يقول: «إن أشعار العرب تمثل «نسخة» لطريقة تفكيرهم، ولطريقة معاشهم؛ هم أناس يتنفسون العزة والحرية، متشبعون بروح المغامرة، وشرف المسؤولية، والشجاعة التي كانت تنفجر إما فى صورة انتقام تجاه العدو، أو فى صورة وفاء ومروءة تجاه الصديق والحليف. ترحالهم الدائم الممزوج بدافع الشجاعة والمروءة أخلف من ورائه أنين المحبات فى أشعارهم... لقد كانوا بحق شعراء قبل بعثة محمد بزمن طويل».

وفى «أفكار لفلسفة التاريخ الإنسانى» كتب «هيردير» فى عام ١٧٨٥م قائلاً: «بالنسبة للعرب كانت لغتهم تمثل أعظم جزء من تراثهم؛ فن الشعر كان يمثل عبقتهم الإرثى القديم؛ كان يمثل ابنة... للحرية. لقد

أينع وأثمر هذا الفن قبل قدوم محمد بزمن طويل ؛ إذ إن روح هذه الأمة كان الأدب، وهناك آلاف الأشياء التي ساهمت في إيقاظ هذه الروح . تعالوا نلقى نظرة على أرضهم ، على طريقة حياتهم ، على رحلات الحج التي كانوا يقومون بها إلى مكة ، على منافساتهم الشعرية ، على عزة أنفسهم - التي كان يرثها الشاعر الابن من أجداده - على فخرهم بأمّتهم وبلغتهم ، على مقولاتهم ، على ميلهم إلى المغامرات والحب والعظمة ، على عزلتهم ، على أخذهم بالثأر ، على معيشتهم غير المستقرة . كل هذه الجوانب - التي ملأت حياتهم - كانت دافعاً لهم لكي يبدعوا في الشعر ؛ فيُخرجوا له أجود وأنفس ما لديهم من الإحساس والمشاعر . هذا بالإضافة إلى تأملاتهم الفطنة ، ومقولاتهم الحكيمة التي تنم عن حدة الذهن وعمق الفكر .

وفي ظل هذه الحماسة المتوهجة ، يكمل «هيردير» قائلاً : «إن العربي ينطق ناراً ، مثلما ينطق سيفه برقاً ، ومثلما ينطق عقله سهماً» . لقد هام «هيردير» بالشعر العربي ، فوصلت ذروة إعجابه إلى تلك الكلمات العجيبة : «لا يوجد شعب يستطيع أن يفتخر بما كان لديه من دعائم عاطفية - أدت إلى ظهور الشعر والأدب والنثر - مثلما كان العرب في أبهى صورهم» .

في ١٧٨٣م ، ترجم «هيردير» و«جوته» معاً - بمساعدة كتابات لاتينية وإنجليزية مأخوذة من المقتطفات الأدبية المشهورة والمعروفة بالقصائد السبع - ما يُسمى بالمعلقات التي ظهرت قبل بزوغ الإسلام . هذه

القصاصد المكتوبة بالإنجليزية ما زالت تعرف - حتى يومنا هذا - بنموذج الشعر الكلاسيكي العربي ذى الشكل الفنى الراقى الرفيع . وهنا لا يفوت على «جوته» أن يعظم من شأنها، فيصفها قائلاً : «كنوز طاغية الجمال . . ظهرت قبل الرسالة المحمدية ، مما يعطى لنا الانطباع بأن القريشيين كانوا أصحاب ثقافة عالية ؛ وهم القبيلة التى خرج منها النبى (محمد) نفسه . » وقد وصف «هيردير» قبيلة قريش قائلاً : «شعرهم كان يدل على حبهم للحرب ؛ تأصلت فيهم النزاعات حول التعدد الهائل للأنساب والجدور ، أشد ما يكونون فى التمسك بالشرف ، والنسب ، والحماسة ، والشهامة» .

ولم يكن «جوته» وحده شغوفاً بالمعلقات ، بل كان «هاينريش هاينه» (١٧٩٩- ١٨٥٦م) خلفاً له فى هذا المضمار . ولم تكن المعلقات وحدها هى التى شغفت قلب «جوته» ، بل شغفته أيضاً مجموعة الملاحم الغنائية لـ «أبى تمام» (٨٤٥) ، التى حملت عنوان «حماسة» . وقد أعجب على وجه الخصوص بملحمة الشاعر «تأبط شراً بن جبير الفهمى» ، حيث أغنيته المشهورة عن ثأر الدماء التى ترجمها «جوته» إلى الألمانية ، معطياً القراء الألمان فكرة حول الشعر العربى . أما عن مدى تأثير هذه الملحمة على «جوته» نفسه ، فقد شرحه لنا مستشرق شاب پروتستانتى (متخصص فى دراسة العلوم الدينية) ، وهو «يوهان جوستاف شتيكل» (١٨٠٥- ١٨٩٦م) ، كشاهد عيان . فقد أخبرنا «شتيكل» عن زيارته لـ «جوته» - وهو فى عامه الواحد والثمانين ، وقبيل وفاته بعام - فقال :

لقد كان «جوته» يحكى لى عن انشغاله المبدئى باللغة العربية فى أثناء
شبابه . وعندما عبرت له عن مدى إعجابى بترجمته النموذجية الفريدة
للملحمة الشعرية العربية فى «الديوان» ، فإذا به يُحرك رأسه تجاهى -
بالرغم من جلوسه - وكأن جسده قد كبر فجأة . . . فى عزة وكرامة
ملحوظتين ، محاضراً الأبيات الآتية :

تحت الصخرة على الطريق

يرقد مقتولاً

لا تبل دمه

قطرات الندى

وعند الظهيرة بدأنا، نحن الفتيان الهجوم

ثم واصلنا السير بالسرى

كما لو كنا سحاباً لا يستكين

كل واحد كان سيفاً

متشحاً بسيف

إذا ما سُلَّ

فهو برق سنّى

كانوا يحتسون أنفاس النوم

ولكن ما أن هوموا

حتى رحنا نقاتلهم

فكانوا هباء منثوراً

كان «جوته» يتلو هذه الأبيات بصوت منضبط - وهو الرجل المسن ذو الذاكرة الفذة العميقة الحادة - كما لو أنه قد مُسّ مسّاً شعرياً . . . فإذا به يطل بعينين متسعيتين، وكأنهما يشعان برقاً ورذاذاً . إن ما أخبرنا به صديقه الشاب «شتيكل» أبرز بقوة العلاقة الحميمية التي كانت تربط «جوته» بالشعر العربي، والتي اعتمدت أساساً على افتتاح «جوته» باللغة العربية، حيث وصفها في عام ١٨١٥م قائلاً : «ربما لم يحدث في أي لغة - هذا القدر العالي من الانسجام بين الروح والكلمة والخط - مثلما حدث في اللغة العربية؛ إنه تناسق غريب في ظل جسد واحد» .



«جوته» ودراسته للقرآن

لقد كان الإعجاب الشديد بالقرآن سبباً أساسياً لافتتان «جوته»، وكثيرين ممن واكبهم من الكتاب والمؤلفين، باللغة العربية. فهذا هو «هيردير» يتحدث عن تلك اللغة القرآنية المقدسة، واصفاً إياها «بأعجوبة العجائب في فن الشعر»، التي نافس بها النبي «محمد» «كل الشعراء»، مضيفاً أن الإسلام يمثل «ديانة أدبية».

يعتقد كل مسلم بأن القرآن «منزل من الله عبر الملاك جبريل إلى النبي محمد، وأن محمداً ليس بشاعر، وأنه أُمِّي. وقد كان خلاصه أو نقاؤه من جميع أصناف العلوم والفلسفات والنظريات المختلفة، كان داعماً ومشجعاً لكي يثق البشر في كلامه، وفي دعوته. فيبقى مصدراً لذلك النقاء الكامل، ومن ثم مكماً رسالته إلى النهاية. وهنا يتذكر الشاعر السوري-اللبناني «أدونيس»، ويذكرنا معه، بأن القرآن - في صورته الشفهية - كان يمثل «مفاجأة لغوية» للعرب جميعاً. لقد أخذ الجمال اللغوي في القرآن بلب العرب، بقلوبهم وعقولهم؛ «لقد كانت هذه اللغة المفتاح الذي فتح الباب للدين الجديد: الإسلام». «إن الموسيقى الشعرية التي كان يعرفها العرب قبل الإسلام - كانت بالتأكيد - أقل ثراء من موسيقى السور القرآنية». وبما أن لغة القرآن هي في الأصل مخلوقة

من عند الله ، فقد اعتمد هذا الكتاب المقدس على الشرح الإلهي والتفسيرات الربانية . ففي القرآن تجد روعة الدلائل على وجود الله ، وعلى عظمته ، وعلى امتلاكه لهذا الكون الفسيح ؛ باختصار ، لم ولن يكون فى مقدور أحد من البشر الوصول إلى تلك التحفة المعجزة الربانية .

اكتشف «جوته» روعة القرآن اللغوية فى بداية عقده الثالث ، وهو ابن الاثنين والعشرين . وكان «هيردير» - عالم الدين البروتستانتى - هو الذى دفعه إلى دراسة القرآن فى مدينة «شتراسبورج» الألمانية فى عام ١٧٧٠م ، وهو الذى قربته من هذا المجال . وكان مفهوم «التسامح» هو المسيطر على عقل «جوته» فى ذلك الحين ، لدرجة أنه ذكر ذلك فى مفكرته «الشعر والحقيقة» قائلاً : «التسامح هو الحل فى ذلك الوقت» . وعبر هذا المفهوم ، ومن خلاله ، تعلم «جوته» كيفية إدراك القرآن وفهم معانيه . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان تعامل «جوته» مع القرآن متماشياً مع روح العصر الذى كان يعيش فيه ، تلك الروح التى كانت تميل إلى معرفة كل ما كُتب غير الإنجيل ؛ ومن ثم ، كان كل جديد يحظى باحترام الشعوب الأخرى ، فيقدسونه كما يقدسون كتبهم ؛ ويدينون له بالاحترام غير المتحيز ، كما كانوا يدينون لكتبهم .

وعودة من «شتراسبورج» إلى مسقط رأسه ، بذل «جوته» جهداً فى الإمام باللغة العربية وبالخط العربى ؛ وباطلاعه على ترجمات القرآن المختلفة ، استطاع أن يصل إلى أول ترجمة ألمانية للقرآن ، التى كتبها

الأستاذ الفرانكفورتى «ديفيد فريدريش مييجيرلين». وتأثراً بهذه الترجمة، بادر «جوته» إلى كتابة ملخص مقتضب عنها - الذى ظهر فى «الأوراق العلمية الفرانكفورتية» - إلا أنه تم إزالته بعد ذلك؛ بسبب تفوق عرض جوته للقرآن على ترجمة «مييجيرلين» التى كانت تلبس ثياباً مسيحياً، حاملة مضامين ومعانى مضادة للإسلام. وبسبب حذف ما كتبه «جوته»، قام الأخير - متحدياً - بوصف ترجمة «مييجيرلين» بالإنتاج «الردىء»، الأمر الذى دفعه بعدها إلى النداء بظهور ترجمة ألمانية أخرى، يكون صاحبها إنساناً ألمانياً «يكون قد قرأ القرآن بحس الشاعر والنبي، ويكون لديه من الروح التى تستطيع الإمام بالقرآن كله، ومن ثم إدراكه من جميع أطرافه». وكان الشاعر والمستشرق «فريدريش روكيرت» هو أول من حاول تلبية نداء «جوته»، إلا أنه لم يفلح فى ترجمته بأكمله.

فى عام ١٨١٩م، وصف «جوته» أسلوب القرآن «بالقسوة والعظمة والرهبة والسكون». كان يسعى دائماً - فى مرحلة الشباب - إلى فهم القرآن وإدراكه، وهو الأمر الذى لم يظهر فقط فى الملخص الذى كتبه حول ترجمة «مييجيرلين»، بل ظهر أيضاً فى الدراما التى كتبها حول النبي محمد ﷺ، والتى ستدور حولها مناقشتنا فيما بعد. وبعد أربعين عاماً، طلّت علينا حوارات «ديوان الغرب والشرق»، التى عكست اتساع مداركه عن الإسلام، والتى توجهها بجهود كبيرة، بذلها من أجل الوصول إلى حوار منطقى عقلانى بين العالم الغربى وبين الإسلام - الذى يعد من

أهم الديانات العالمية - فى كل زمان ومكان، معتمداً فى الأساس على لغة الاحترام المتبادل.

إن هذا الاحترام يمثل عنصراً حقيقياً لعلاقته بالعالم الإسلامى ؛
وفيما يلى بعض الأمثلة التى تدلل على ذلك : عندما كان «جوته» فى
عامه الاثنين والعشرين ، فى بداية حياته الأدبية ، كتب رسالة إلى
«هيردير» قائلاً له : «أريد أن أدعو مثلما دعا موسى ربه فى القرآن ﴿رَبِّ
اشرحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه : ٢٥] لقد استشهد «جوته» هنا بالسورة رقم ٢٠
من القرآن (سورة طه) . أما عن دلالة ما كتبه «جوته» ، فيمكن فهمه من
خلال استكمال قراءة السورة ، ومدى تأثيره بها فى ذلك الوقت ؛ إن
الآيات تقول : ﴿رَبِّ اشرحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً
مِّنْ لِّسَانِي﴾ [طه : ٢٥ - ٢٧] . إن استشهد «جوته» بآيات القرآن تلقى
ضوءاً على التقدير الخاص الذى كان يحمله «جوته» فى قلبه تجاه هذا
الكتاب المقدس . وبعد خمسين عاماً ، أعلن «جوته» ذو السبعين عاماً
عن تفكيره فى «الاحتفال بتلك الليلة المقدسة التى نزل فيها القرآن من
أعلى السماء إلى النبى محمد ﷺ . وإذا تأملنا فى الكلمات التى
اختارها «جوته» هنا - «الليلة المقدسة» ، «من أعلى السماء» - سنجد أنها
نفس الكلمات التى تستخدمها المسيحية للاحتفال بميلاد المسيح فى ليلة
الميلاد .

بدون أدنى شك ، كان استخدام «جوته» لتلك الكلمات بعيداً كل
البعد عن اللغة السائدة التى كان يتحدث بها العالم الغربى ، فى ذلك

الوقت، عن الإسلام. فعلى عكس النبی محمد ﷺ وعلى عكس المسلمين، الذين كانوا يكونون كل الاحترام والتقدير للكتب السماوية الأخرى (التوراة والإنجيل)، كان العالم الغربى لا يُكن هذا الاحترام أو التقدير للقرآن. لقد رأى «جوته» - خلافاً للعالم الغربى - التأثير الربانى الذى تركه القرآن على تاريخ البشرية، كما رآه قبل ذلك فى العهدين: القديم والحديد. ومن ثم، كان عكوفه - منذ الصغر - على دراسة القرآن، مما أعطى مثلاً صريحاً وواضحاً عن كيفية احترام المسيحية للإسلام... إلا أنه، ومع الأسف الشديد، لم يتبع خطاه إلا نفر قليل. والنقطة الأخيرة التى نريد الإشارة إليها فى هذه الفقرة هى: أنه لولا دراسته للقرآن وإدراكه الشامل له، لما شعر بهذا التبجيل وبهذه الرهبة تجاهه.

إن اقتباسات «جوته» من القرآن فى عامى ١٧٧١ و ١٧٧٢م تعكس بوضوح تقديره الشخصى للسور والآيات، ذلك التقدير الذى يعكس قناعاته بأمور وحقائق كثيرة فى الإسلام، طالما كان يبحث عنها.. وأخيراً وجدها. تلك الحقائق التى وجدها أخيراً فى القرآن، فشحذت عقله، وأثارت لديه من التعاطف والتأييد، سواء على المستوى العقلى أو الحسى. فكانت السورة الثانية من القرآن (البقرة) من أكثر السور التى أثرت فى الشاعر الألمانى، ومن أحب السور إلى قلبه. فيها هو يسجل الآية رقم ١١٢، مسجلاً ذلك الفكر الرائع العميق الذى احتوته الآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿ [البقرة: ١١٢]. ثم يُتْبِعُهَا بآية أخرى، من نفس السورة، تعبر عن دليل الوجود الإلهي في الكون كله، وهى الآية ١١٥: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]. وإذا بـ«جوته» يقفز بعدها إلى الآية ١٦٤، مركزاً على نفس الموضوع المختص بوجود الله في الكون: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذه الآيات - مثل نظائرها الكثيرة في القرآن - تشهد على أن الله ليس كمثله شيء؛ فمن خلال متابعة الإنسان للنظام الكوني المتجلى في جميع الظواهر الطبيعية، يتبين له، ويبدو برهاناً أمامه، طلاقة القدرة الإلهية في هذا الكون، وديمومة القوانين الطبيعية التي ليست إلا قوانين إلهية، والتي وضعها الله لتسيير ملكه. إن القرآن يُعلمنا تأمل الطبيعة وتدبرها في جميع أشكالها، في ثرائها ونظامها، وكيف أن هذا التأمل يقودنا إلى الإيمان بوجود القدرة الإلهية؛ بوجود الإله الواحد الذي تتجلى قدرته في كل شيء. لكن «جوته» لم يتعرف على ذات الله «الواحدة»، التي ليس كمثالها شيء، من ترجمات القرآن المشهورة -

سواء ترجمة «ميجيرلين» الألمانية أو ترجمة «ماراكوس» اللاتينية - بل تعرف عليها من خلال متابعتة وتأمله في شخص النبي محمد ﷺ .

ومن ضمن ما سجله «جوته» أيضاً - من خلال قراءته للقرآن - الدعوة إلى عمل الخير التي تعتبر من أهم سمات القرآن . وقد انعكس اهتمامه بهذا الأمر بالذات في «ديوان الغرب والشرق» الذي لم يخل من نداءاته المستمرة للمسارعة في عمل الخير . وكذلك كان من ضمن ما سجله «جوته» من القرآن ما يتعلق بكون الله لم يتحدث إلى البشرية عبر رسول واحد، بل عبر رسل عديدين . ويسجل ذلك من السورة الثالثة من القرآن ناقلاً : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

لقد دار جدل كبير بين الشاب «جوته» وبين «يوهان كاسبير لافاتير» (١٧٤١-١٨٠١م) - عالم الدين الهروتستانى السويسرى - حول مسألة المسيح : هل هو الرسول الوحيد الذى اختاره الله لتبليغ كلمته؟ أم أن هذه المهمة كُلف بها رسل آخرون؟ كان «جوته» يحاول ساعتها إقناع «لافاتير» - من خلال الإشارة إلى النبي «محمد» - بأن التاريخ لا يقتصر فقط على الدين المسيحى، بل يمتد أيضاً إلى مدارس دينية وتعليمية أخرى، تستحق أن تحظى بنفس الاحترام، إلا أن «لافاتير» لم يبدُ أنه اقتنع، مما أدى إلى القطيعة بينهما فى نهاية المطاف .

كذلك مثلت اقتباسات «جوته» من القرآن شغفه الخاص بالتأثير المحمدى على مجتمعه . فسجل ناقلاً من السورة الـ ٢٩ (العنكبوت) من القرآن : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت : ٥٠] ، ثم من السورة الـ ١٣ (الرعد) : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] . لقد تأثر «جوته» بهذا المعنى ، الذى كان هو المحبب لديه طوال حياته ، فها هو يكتب فى عام ١٨١٩م رسالة إلى أستاذ شاب ، قائلاً : «إنه الحق ما يقوله الله فى القرآن : لم نبعث رسولاً إلى قوم ، إلا أن يكون من بنى جلدتهم ، ولغتهم ، وثقافتهم» . وكذلك كتابته إلى «توماس كارليل» فى عام ١٨٢٧م قائلاً : «القرآن يقول : إن الإله أعطى لكل قوم رسولاً يتحدث بلغتهم» . وكذلك تأثر «جوته» بتلك الآيات التى تتحدث عن غير المؤمنين ، الذين طالما طالبوا محمداً بإتيان المعجزات . وقد ظهر ذلك جلياً فى «ديوان الغرب والشرق» عندما كتب هذه الأبيات قائلاً :

المعجزات لا أستطيع إتيانها قال الرسول

المعجزة الأكبر هى وجودى بينكم رسولاً



الرسول

أدت دراسة «جوته» للقرآن فى عامى ١٧٧١ و ١٧٧٢ م- التى وصلت به إلى درجة الشغف والولع - إلى تفكيره فى «الدراما المحمدية» التى كانت حينذاك تقف فى تعارض مطلق لمسرحية «فولتير» (١٦٩٤- ١٧٧٨م) المسماة بـ«تطرف النبى محمد ﷺ». ومن فرط بغضه لمسرحية «فولتير»، منع الشاب «جوته» أخته «كورنيليا» من المشاركة فى إعادة عرض المسرحية التى كانت قد خرجت للنور فى عام ١٧٤٢م، تلك المسرحية التى وضعت أبشع صورة يمكن للمرء تصورها عن نبى .

وقد انقسمت «الدراما المحمدية» التى ألفها «جوته» فى شبابه إلى مشهدين : المشهد الأول صور بعثة النبى محمد ﷺ ، وكيف تم تكليفه بالرسالة ، والمشهد الثانى صور معاناته فى تبليغ رسالة التوحيد إلى البشر من حوله . فى ذلك الوقت ، قام «جوته» بتأليف «أغنية محمد» التى تعتبر أول تبجيل للنبى «محمد» من قبل شاعر أوروبى . من خلال هذه الأغنية الفريدة من نوعها ، نستطيع أن نلمس جيداً مدى تأثير الدين الإسلامى على «جوته»؛ ولعل أكثر ما أثر فيه - كما هو ظاهر فى الأغنية - هو

انبهاره بشخص النبی نفسه ، ثم انبهاره بكونه مؤسساً للدين ، لم يعتمد في نشره على الكلمة فقط - كما فعل المسيح - وإنما اعتمد أيضاً على الكفاح الديوى الملموس . وقد قام كتاب «شعر وحقيقة» - المهتم بتناول حياة الشعراء - بالتحدث عن «جوته» ؛ فأخبرنا أن اطلاعاته الثقافية والأدبية حول النبی «محمد» - الذى لم يستطع أن يراه أبداً كإنسان كاذب أو مدلس - هى التى حفزته وحركت لديه الرغبة للتفكير فى تأليف «التراجيديا المحمدية» التى «جسدت كل ما يمكن أن يعجب به المرء فى شخص بعينه» .

سعى «جوته» إلى الربط بين النبی المعلم الروحى وبين النبی الإنسان ذى الصفات الشخصية والذاتية . تناوله كظاهرة تستحق الوصف فى «أغنية محمد» ، التى أفردت له مكاناً خاصاً ومتميزاً ، والتى كتبها «جوته» فى إطار حوار متبادل بين «على» و«فاطمة» ، أو بين زوج ابنة الرسول وبين ابنته ؛ كتبها «جوته» فى عام ١٧٧٣م ، بعدما قبع على دراسة كافية للأدبيات المحمدية . فى هذه الأغنية ، عكس «جوته» المزج الذى حدث بين الشخصية التى تؤسس ديناً جديداً وبين نفس الشخصية التى تربي البشر من حولها روحياً وإيمانياً . ذلك المزج الغريب الذى أدى إلى نشر هذا الدين الجديد ، وتضاعفه بقوة فائقة :

انظروا إلى الصخر

كيف يلمع مثل النجمة ،

عبر السحاب تقترب
أرواحه الجميلة الشابة
بين الأجراف والشجيرات

بانتعاشة الشباب
يرقص فى وسط السحاب
لينزل على الصخر الرخامى
ولكنه يحفل مرة
أخرى بالسمااء

وبين مضائق الجبال
سار يتتبع الحصى الملون
وبخطى أقدام القائد
شد معه إخوانه
وأخذهم معه

تحت فى الوادى

تعيش الورود تحت خطى قدميه

والحدائق تعيش

وتتنفس بهوائه ونسماته

فى غير ظله

لا توجد الورود

التي تلتف حول ركبته

لتنظر إليه بعيون الحب

إلى الأرض المبسوطة

يجرى ويعدو

ها هو يجرى فى الوادى

مئلاً بهياً

والأنهار الجارية فى الوهاد

والجداول الهابطة من الجبال

تهتف به صائحة: يا أخانا

يا أخانا، خذ إخوتك معك
خذنا إلى أبيك الخالد
إلى المحيط الأزلى
الذى ينتظرنا
بذراعين مفتوحتين

أخانا.. أقدم خذ إخوانك معك
إلى أبيك الكبير
إلى المحيط الدائم
الذى ينتظرنا
وهو فاتح ذراعيه
وإلا ستنهشنا الصحارى الموحشة
وإلا ستمص الشمس دماءنا
وإلا ستمنعنا التلال
من البحيرة، يا أخانا
خذ إخوانك من السهول

خذ إخوانك من الجبال
خذهم معك إلى أبيك
تعالوا جميعاً!...
والآن يعلو ويكبر
حمل معه الأمراء
وفى وسط انتصاراته
أعطى للبلدان أسماء
ودانت المدن تحت قدميه

بدون توقف أكمل مسرعاً
تاركاً الأبراج وبيوت الرخام
تاركاً الترف والثراء
لا يعبأ بهما
بسرعة تتهاافت
آلاف الأعلام حول جسده
يتلمسون جماله من عبق الهواء

هكذا حمل إخوانه

هكذا حمل أحبابه وأطفاله

كما نرى، صور «جوته» العبقريّة الدينيّة محمداً ﷺ وهو يشد إخوانه البشر معه إلى الله، كما يشد النهر الكبير النهرات الصغيرة معه إلى البحر. لقد أعطت هذه الأنشودة الشعرية مثلاً صريحاً عن الإجلال الذى أحقه شاعر أوروبى - مثل «جوته» - بمؤسس الإسلام. لقد دلت الأبيات على ذلك التطبيع الذى نشأ بين الشاعر الألماني وبين بطل شعره «محمّد». لقد صور «جوته» فى صورة الإنسان الذى يخاف على بنى جلدته من البشر، فيعاملهم كإخوة له؛ ومن ثم يشد على أيديهم، آخذاً بهم إلى الحياة العليا، إلى الحياة الأرقى. لقد حملت الأغنية المحمدية قناعاته حول الانقياد للطبيعة والتصالح مع العالم؛ وهى قناعات تتعارض تماماً مع نظرية التقشف المسيحية.

لقد عكست «الدراما المحمدية»، وبقوة، شغف «جوته» الشديد لتبليغ رسالة التوحيد التى اقتبسها من أكثر من موضع من القرآن. وقد أقر بذلك فى كتاب «الشعر والحقيقة» قائلاً: «لقد بدأ المقطع بأغنية دينية تصور جلوس «محمّد» فى ظل ليل السماء الدامس؛ يتأمل فى العدد غير النهائى للنجوم، التى يتزعّمها النجم «جوبيتر» - ملك النجوم... بعدها بقليل يتحرك القمر... تتطلع إليه عيناه... يتطلع إليه قلبه... ثم تأتى الشمس لتوقظه، فتعطيه قوة ونشاطاً. وفى وسط كل

هذا - فى وسط تبدل الليل بالنهار ثم النهار بالليل - ينهض «محمد» إلى الإله الواحد الباقي الذى لا تحده حدود، حامداً له على ذلك الكون الرائع بكل ما فيه من إبداع وجمال . . . باختصار، لقد أُلْقَتْ هذه الأنشودة الشعرية بكل الحب والامتنان . . . إلا أنها ضاعت فى النهاية . ولكن بالرغم من ضياع المخطوط الأصيل لتلك الأنشودة الدينية إلا أن ذاكرته لم تنسها أبداً . وها هى تخرج بعد موته إلى السطح، حيث يغنى البطل فى مطلعها، وهو يتأمل فى السماء، مبلغاً آية التوحيد عن ربه من القرآن قائلاً:

انظروا! ها هو يسطع فى السماء، المشتري النجم الصديق

كُنْ أنت سيدى، كُنْ إلهى! إنه يلوح لى فى حنان

انتظر. انتظر. أَنُحَوِّلُ عينيك؟

ماذا، أيمكن أن أحب مَنْ يَتَخَفَى عنى؟

مباركٌ أنتَ أيها القمرُ. يا هادى النجوم،

كُنْ أنتَ سيدى، كن إلهى أنت تضىء الطريق

لا تتركنى، لا تتركنى فى الظلام

أيتها الشمس، أنت أيتها الشُعْلَةُ الْمُتَوَهِّجَةُ التى يَتَبَلَّلُ لها

الفؤادُ المشتعل.

كونى أنت إلهى. قودى خُطَاى، يا من تطلعين على كل شىء.

أَوَ تَأْفَلِينَ أَنْتِ أَيْضًا، أَيْتَهَا الرَّائِعَةُ؟
إِنَّ الظَّلَامَ الْعَمِيقَ يُخَيِّمُ عَلَيَّ.
ارْتَفِعْ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْعَامِرُ بِالْحُبِّ لَخَالِقِكَ.
كُنْ أَنْتَ مَوْلَايَ، كُنْ إلهِي. أَنْتَ يَا مَنْ تُحِبُّ الْخَلْقَ أَجْمَعِينَ
يَا مَنْ خَلَقْتَنِي وَخَلَقْتَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
وَالنُّجُومَ وَالْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ.

لقد أظهرت الأبيات تعانق «جوته» مع الطبيعة في ظل التصور الإسلامي. أظهرت قناعته بأن الإنسان يستطيع أن يتعرف على خالقه الواحد من خلال تجليات الطبيعة المتعددة التي لا حصر لها؛ تلك القناعة التي لمسها «جوته» من القرآن. إن تأثير عقيدة التوحيد على «جوته» احتل أهمية كبرى لديه؛ لدرجة تعبيره عنها من خلال المشهد الحوارى بين «محمد» الصبى وبين «حليمة» أمه فى الرضاعة. فها هى تحدّثه وهو خالٍ إلى نفسه فى إحدى الليالى، قائلة:

حليمة: محمد!

محمد: حليمة! هل يجب أن تأتى الآن لتخرجينى من هذه الأحاسيس الروحية الجميلة. ماذا تريدن منى يا حليمة؟

حليمة: لا تقلقنى عليك يا ابنى الحبيب؛ فأنا أبحث عنك من قبل غروب الشمس. لا تعرض صباك إلى مخاطر الليل.

محمد: إن الله يحفظ الليل كما يحفظ النهار.

حليمة: تجلس وحدك على السطیحة . فاللیل لا یأمن من السارقین .

محمد: لم أكن وحدی . لقد تقرب منی الإله بحبه وحنانه .

حليمة: هل تراه؟

محمد: ألا ترينه؟ فی كل منبع، تحت كل شجرة يتلقفنی بدفء حبه .

كيف أشكره عما فعله معی . فقد شق صدری، وأخذ الطبقة

الصلبة من قلبي بعيداً عني، حتى أعرفه .

حليمة: أنت تحلم . هل يمكن أن يُشق قلبك وأنت على قيد الحياة؟

محمد: أنا أريد اللجوء إلى ربی، فأدعوه . فيهديك للعلم والفهم .

حليمة: من هو إلهك؟ هُبِل؟

محمد: يا لهم من أناس متكسين، يلجأون إلى الحجر الأصم . أنا

أحبك يا ربی، فابق معی، واضممني إليك! هل لدى الأصنام

قلوب يفقهون بها؟ أم أذرع يعملون بها؟

حليمة: الذي يسكن الحجر لديه قوة كبيرة . .

محمد: إلى أي مدى يمكن أن تصل هذه القوة؟ بجانب هذا الحجر،

يقف ثلاثمائة آخرون .

حليمة: أين يوجد ربك؟

محمد: فی كل مكان .

كما نرى، يصور هنا «جوته» بعض مشاهد الطفولة التي عاشها النبي مع مرضعته «حليمة»؛ فيسرد لنا بعض القصص الماثورة مثل قصة «شق الصدر»، واضعاً حولها تخيلاته كشاعر وفنان. ولم تقتصر «الدراما المحمدية» على طفولته وروحانيته فقط، بل امتدت أيضاً إلى حياته الحربية والعسكرية وإلى حياته كقائد وكفاتح. وبخصوص هذا الشأن، يرى «جوته» بأنه «كلما امتدت الحياة الأرضية تراجعت الحياة الإلهية»^(١) أما في نهاية الدراما، فقد وضع «جوته» النبي في أبهى وأنصع صوره، مبيناً مفارقتة للعالم والحياة، بعد أن تمكنت رسالته من الوجود، وبعد أن تثبت «عرشه»، وبعد أن حظى بتقدير وإعجاب الخلق.



(١) المترجم يرى في ذلك اعتقاداً خاطئاً. فالروحي والمادى عند النبي ﷺ كانا يتماشيان في توازن مثالي. ففي غزوة بدر مثلاً، ظل يدعو في عرشه، رافعاً يديه حتى ظهر بياض إبطيه.

تأثير فلسفة «سبينوزا»

لم يجد «جوته» فلسفة التوحيد فى الإسلام وحده، بل وجدها أيضاً فى نظرية «سبينوزا». لقد كان الشاعر الألمانى نصيراً وفيّاً للفيلسوف «سبينوزا»، صاحب نظريتى «المشيئة الإلهية» و«التوحيد من خلال التأمل فى الطبيعة». هاتان النظريتان التقتا مع الإسلام فى نقطة تماس؛ فكما تحوز نظرية «المشيئة» على أهمية محورية فى الإسلام، فهى تحوز على نفس الأهمية فى فلسفة «سبينوزا». لقد كان «جوته» مؤمناً برسالة الإسلام الأساسية: «الإسلام بمعناه الحقيقى»، أى الخضوع لمشيئة الله؛ ومن ثم كان إدراكه لتلك المعانى ظاهراً فى أعماله على وجه الخصوص.

وفى الأوقات العصيبة، كان «جوته» يتشبث ويتعلق بنظرية «المشيئة» الإلهية؛ مثلما حدث عندما مات صديقه - وكان من النبلاء - «كارل أوجوست»؛ حيث ذهب ساعتها إلى «يوهان بيتر إكيرمان» باكيًا وقائلاً: «الله فعل هذا، لأنه يراه خيراً؛ ولم يعد أمامنا ولا فى وسعنا سوى حمله». لقد كان «جوته» مؤمناً ب«تصور خاص»، خاصة فى حوادث الوفاة. فيقول فى عام ١٨٢٧م إلى القنصل «فريدريش فون مولير»: «نحن نعيش طالما يريد الله ذلك». كما دَوَّنَ قائلاً: «الله لديه قوة تفوق

قوتنا، وحكمة تفوق حكمتنا؛ فهو يتصرف معنا بما يراه وما يريده هو». وكذلك تعبيره في رسالته أثناء رحلته الإيطالية، في ١١ أغسطس ١٧٨٧م، حيث قال: «لا أحد يستطيع أن يقف ضد قدره».

لقد تحدث «جوته» عن «الاستسلام للقدر» في ضوء الإسلام؛ فنراه يكتب في عام ١٧٩٢م قائلاً: «كلما اشتد الخطر، وكلما اشتد البلاء، يتبين لى أن من يعانون الابتلاء يشعرون بعدها بقوة فى الإيمان والاعتقاد». الديانة المحمدية تعطى أكبر دليل على ذلك. وفى عام ١٨٢٠م، عندما مرضت أخته غير الشقيقة مرضاً خطيراً، كتب إلى صديقه صاحب نفس الموقف من الإسلام قائلاً: «لا أستطيع أن أقول إلا أننى أجد نفسى - مرة أخرى - باحثاً عن الإسلام».

وبنفس الوتيرة، وبنفس اللهجة، كتب «جوته» فى عام ١٨٣١م، عندما انتشر وباء الكوليرا من حوله: «هنا لا يستطيع أحد أن ينصح غيره فيما يفعله. فنحن نعيش جميعاً فى الإسلام الذى يعطينا الشجاعة فى مواجهة الحياة». وقبل موته بأربعة أسابيع، كتب وهو فى عامه الاثنين والثمانين: «هنا فى هذا المكان، من أجل أن يتحرر البشر من دوامة الخوف المفزع، انتهوا بإلقاء أنفسهم فى حضن الإسلام، واثقين فى الله وفى أقداره النهائية غير المكشوفة لنا». كما نلاحظ هنا، فإن الرسالة الإسلامية استطاعت التمكن من فكر «جوته»؛ فعاش حياته ساعياً - بكل وعى وإصرار - وراء المحور الأساسى الذى تركزت عليه رسالة

الإسلام؛ وهو الاستسلام والخضوع لله. ولم يكتف بذلك، بل إنه قام أيضاً بتوجيه أصدقائه إلى هذا المحور الإسلامى، من خلال رسائله إليهم.

لاحظ «جوته» القرابة بين الإسلام وبين حركة الإصلاح البروتستانتى المسيحى؛ فحدث القنصل «فون مولير» فى عام ١٨١٩م قائلاً : «الخضوع والاستسلام هما الأساس الحقيقى لأى دين أفضل. بمعنى آخر، أن يدرك المرء معنى الخضوع للمشيئة العليا، ولمن هو أكثر عقلاً وأكثر فهماً منا. إن الإسلام وحركة الإصلاح البروتستانتى هما الأكثر شبهاً من دون جميع الأديان». وفى المحادثات التى جمعها «إكيرمان»، نشهد مرة أخرى حباً جارفاً ومتيماً من قبل «جوته» تجاه الإسلام، حيث يركز هنا على معنى نظرية «القدر والمشيئة»، فقال : «إنه لمن اللافت للانتباه، أن ننظر إلى المحدثين لنرى كيف كانوا يُربون وينشئون الأجيال المسلمة. كان الدرس الأول والأساسى هو تثبيت الشباب على عقيدة القضاء والقدر، وأن الإنسان لن يستطيع أن يواجه أمراً إلا ويكون قد كتبه الله له من قبل؛ ومن ثم يصيرون بعد ذلك آمنين مطمئنين بقية حياتهم».

ويكمل «جوته» قائلاً : «لا أريد هنا تقييم هذه التربية المحمدية، وهل هى صائبة أم خاطئة، مضرّة أم نافعة؛ ولكنى بصدد توضيح كيف ترسخ وتغلغل ذلك الاعتقاد فىنا جميعاً بدون أن نتعلمه أو ندرسه. فكما يقول الضابط فى وسط المعركة : «الطلقة التى لم يكتب عليها اسمى لن تصيبنى»؛ وإلا فكيف سيستطيع الإلقاء بنفسه فى مهالك المعركة؟ وكيف

له الاحتفاظ بشجاعته إذا لم يخضع لهذا الاعتقاد؟ وعلما الاعتقاد المسيحي «أن العصفور لن يسقط من السقف بدون مشيئة أبيكم» ؛ وهو اعتقاد ينبع من نفس المنبع، ويدلل على نفس التصور، وهو: أن أنفه شىء فى هذا الوجود لن يحدث إلا بعد المشيئة العليا» .

لم يسلم «جوته» من الانتقادات والاتهامات ، لكونه يثنى على الإسلام بهذا الشكل الذى استفز أذناً غربية كثيرة عند سماعها، كما كتب فى «كتاب المقولات» :

من حماقة الإنسان فى دنياه

أن يتعصب كلّ منا لما يراه

وإذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم

فعلى الإسلام نحيا ونموت نحن أجمعين

هذه المقولة لا تعنى إلا المعانى التالية: أولاً: أن كلمة «الإسلام» لا تعنى إلا «الخضوع والاستسلام» الكامل لمشيئة الله، ثانياً: أنه على الإنسان الاعتقاد فى كون الله وحده أعلى ذات فى الوجود، ومن ثم فلا يجوز الخضوع إلا إليه ؛ بل لا يستطيع الإنسان إلا الخضوع إليه .

ولم ينس «جوته» - وهو يسجل قناعاته بنظريات «المشيئة» و«القدر» و«الاستسلام» - بأن يسجل أيضاً قناعاته بالحرية الإنسانية. وقد تجلّى ذلك فى «ديوان الغرب والشرق»، الذى أظهر فيه كيف تتعانق «الحرية»

مع «المشيئة»؛ وهو التعانق الذى يعكس نظرتة للوجود أو الـ Weltans-
chauung .

وفى «كتاب المغنى» يطل علينا فارس أبى ، تتفجر من وجهه العزة
والكرامة ، ممتطياً جواده فى كل الأبعاد . ظهوره يبدو مفاجئاً ، مما يجعلنا
نتساءل : من يكون هذا الفارس؟ هل هو «المغنى» الذى اقتحم «المشرق
الخالص النقى»؟ أم هو التاجر الذى ينتقل ببضاعته من الصحارى إلى
المدن؟ من يكون هذا الفارس الذى يصيح فى مثل هذه الجرأة قائلاً :

دعونى فوق سرج جوادى

وابقوا فى أكواخكم وخيامكم

وسأطلق سعيداً فى كل الأرجاء

لا يعلو على قلنسوتى غير نجوم السماء

اكتشفنا بعد ذلك ، أن كتابة «جوته» لهذه الأبيات كانت على أثر
رحلته إلى بلاد القوقاز ، حيث شهد ذلك «الفارس الحر» بأمر عينيه .
طبعاً ، لم يراه متجسداً ، وإنما رأى المعنى الكامن وراءه . . . رأى الحرية -
بنقائنها وصفائها - متجسدة فى حياة الإنجوش ، وهم قوم متفرعون من
الشيشانيين . وهناك فى بلاد القوقاز ، استمع الشاعر الألمانى إلى مقولة
أحد الرجال ، وهى مقولة تصف حالة البشر هناك ، وهى : «فوق عمامته
لا يرى إلا السماء» . إن «فارس جوته» إذًا هو الرجل

الشيشانى، الذى لا ينحنى إلا لربه؛ فيقاوم كل خضوع وكل هوى يتجه
لغيره. لقد عكست الأبيات مدى التعاطف العميق الذى ولاه «جوته» تجاه
تلك الحياة الحرة الحقيقية التى يعيشها أولئك القوقازيون.

لقد كان «جوته» مقيمًا بتلك الحياة الطبيعية البسيطة غير المقيدة من أية
متع مادية. وقد تجلّى ذلك فى أحلامه التى عبّر عنها فى «ديوان الغرب
والشرق»، وكذلك فى «هجرة» أو Hegire، حينما تحدث عن ذلك
الهارب من أوروبا، الذى فر إلى «الشرق الأصيل» ولاذ به، ودخل بقوة
فى ثنايا أعماقه الأصيلة؛ ليجد هناك المبادئ الإنسانية البديهة الأولى
التي خلق عليها جنس البشر؛ «حيث ما زال هناك إيمان بالله وتصديق
بكلامه. حيث ما زالت هناك تعاليم السماء تطبق على الأرض». لقد
كان «جوته» يبحث عن «الأصل» فى العالم الحاضر؛ كان يبحث عن
أبسط أساليب الحياة وأنقاها؛ تلك الأساليب التى كانت موجودة فى
الشرق... «الشرق الأصيل النقى» كما وصفه فى «ديوان الغرب
والشرق». «هناك فى بلاد النقاء والحق» يريد «الفارس» أن «يخطو فى
كل طريق»، «فيختلط تارة مع الرعاة - فرجال الدين كانوا أنفسهم رعاة -
وتارة مع التجار، فيصير تاجرًا، كما كان «محمد» قبل بعثته كرسول.
ذلك الفارس هو نفسه الشخص الذى ينظر «فوق قبعته»، فلا يرى إلا
السماء. إلا أن «جوته» كان أكثر التحامًا وتعلقًا برجل القوقاز الذى كان
«السرّج» أو «البرذعة» أحب إليه من أمان «الخيام» و«الأكواخ».

وقد انعكس هذا التعلق فى طريقة استخدام «جوته» للغة، حيث أكثر من التلفظ بضمير «الأنا» وما يتصل به من ضمائر أخرى تعود على المتكلم (حوالى ثلاث مرات فى أربعة أبيات). فيقول: «اتركنى»، «أنا أمتطى الجواد»، «فوق قلنسوتى». ويدلل هذا الاستخدام اللغوى على التعانق - الذى يكاد يكون لصيقاً - بين شخصية «جوته» التواقة إلى الحرية وإلى التحرر من متع الحياة وبين شخصية الفارس القوقازى الذى يرى فى سرجه أو برذعته قيمة أكبر من الحياة الهادئة فى الخيام والأكواخ.

يصور لنا «جوته» السعادة الفتية المنبعثة من ذلك الفارس الذى يأتى من أقصى بلاد الأرض - الأمر الذى يوحى بانفتاح الطريق أمامه - ليجرى ويعدو كيفما يشاء، غير مبال بطول الطريق، ما دامت الإرادة موجودة. إن «جوته» يرسم لنا المناخ الذى ييغى التحرك فيه؛ مناخ «الحرية» و«الرغبة فى اختراق كل جديد».

أما «الليل» بسحره ونجومه، فله متناول خاص لدى «جوته»، حيث يفرد له أبياتاً خاصة، تتحدث تارة عن السماء المتلألئة بالنجوم، وتارة أخرى عن النجوم التى تتراقص بأنوارها فوق رأس الفارس الممتلى بالفرحة الغامرة... فرحته باستقلاليتته وهو ممتطى جواده العفى القوى... فرحته بمنهج حياته... فرحته بجمال الليل وانتعاشه، حيث تقول النجوم المتوهجة كلمتها الأخيرة، كما هو مكتوب فى الأصل «فوق قلنسوته لا يرى إلا السماء». ومن الجدير بالذكر أن اختيار «جوته»

للنجوم ارتبط ارتباطاً وثيقاً بكلمات ومعانى القرآن؛ فهذا هو مقطع شعري رباعي يقول:

جعل لكم الكواكب والنجوم

لتهتدوا بها فى البر والبحر

لكى تنعموا بزينتها

وتنظروا دائماً إلى السماء

لقد اعتاد «جوته» - كما هو حادث فى مواضع كثيرة بشعر «ديوان الغرب والشرق» - على انتصاف مقاطعه الشعرية الرباعية إلى نصفين : نصف من القرآن، ونصف من شعره . فالله يقول فى القرآن، فى سورة الأنعام، آية ٩٧ : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ . هذا البيت الرباعى - كما نرى - يتميز بالطابع الشرقى ؛ ففى أوروبا المكتظة بالسكان يكاد استخدام النجوم «كهاد فى البر» أن يكون منعدماً ، بينما هو أمر لا يستغنى عنه فى صحارى المشرق المطلة على البحار . ومن ثم ، فبدون النجوم يدخل أهل الشرق فى حالة من التيه والظلمات . لقد صور «جوته» جمال الليل بنجومه المتألئة ، وصور الإنسان الذى يتأملها بامتنان وسعادة ؛ ولكنه ليس أى إنسان، وإنما هو ذلك الإنسان الحر الذى لا يرى إلا النجوم فوق قلنسوته . فعليه - فى وسط استمتاعه بالتأمل - أن يستمتع أيضاً بتميزه فى وسط هذا الكون الفسيح ؛ ليعلم فى النهاية بأن الإله العظيم ينظر إليه من خلال كل نجم

يتلأأ في السماء . وكتب «جوته» في ذلك قائلاً : «إذا كان الإنسان يشعر بذاته في العالم كشعور الجزء من الكل - ولكن الكل الجميل القيم - وإذا كان هذا التناغم الكوني يمنحه تلك المتعة . فإن الكون كله يصير هدفه وغايته . . وإلا فلماذا هذا التعاقب بين الشمس والكواكب والنجوم والضباب والأحياء والموتى . . . إذا لم يتواجد في النهاية إنسان يسعد ويستمتع بوجوده على الأرض؟

في شعره «حرية العقل» جعل «جوته» الفارس الشيشاني رمزاً إنسانياً للحرية . وهنا يطرح «جوته» لب أو قلب الحرية . . ألا وهو «حرية العقل»، أو «عقل الحرية»، أو «العقل للحرية» (استخدام «جوته» لأكثر من مصطلح). إن شعره عن «حرية العقل» يعكس المدلول الحقيقي للحرية؛ ألا وهو سيادة الإنسان على نفسه أو ذاته. إنه يعكس سعادة الإنسان التي لا يعيها... سعادته وهو جالس تحت النجوم، في أمن وأمان تحت ظل سماء الخالد القادر على كل شيء، ليتفجر منه إدراكه ووعيه بحريته التي تدفعه لمقاومة كل ذل وخضوع.

ومن العجيب أن نرى ذلك الشيشاني بعد ذلك - الذي خصه «جوته» بإدراكه العالي للحرية - يتهم الآن بالإرهاب من قبل الروس؛ بل إن الشعب الشيشاني بأكمله متهم دون بقية العالم بالإرهاب. ومن ثم، تساء معاملته إلى أقصى درجة. وحتى إذا انتهك أحدهم أبشع الجرائم الإرهابية، فهذا لا يبرر أن نقذف كل الشعب بالإرهاب. والأخطر من

ذلك، أن يتم قهر الحرية نفسها تحت حجة الإرهاب؛ تلك الحرية التي أدرك منها هذا الشعب الكثير، والتي كافح لإنقاذها حتى القرن الواحد والعشرين. إن رفض هذا الشعب لأشكال حكومية غريبة عليه، ورفضه الخضوع والاستسلام، وإصراره على حماية استقلاليته لا يعنى أبداً أنه إرهابي. وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه عالمنا اليوم، حينما ذم رغبة الشعوب في الحرية، فصورها على أنها إرهاب. وكان على العالم - بدلاً من ذلك - أن يتعلم من هؤلاء البشر غير الحداثيين؛ يتعلم منهم حب الموت وتفضيله عن حياة الذل والهوان، يتعلم من لغتهم التي لا تعرف كلمة «أمر»، يتعلم من نظريتهم في الحياة التي لا تعترف بحق الأقوى، ومن ثم ترفض عقلية العبيد.

إن تعاطف «جوته» مع وجهة نظر مثل هذه، يدفعنا إلى إعادة تفكيرنا حول هذا الشعب المهدد بقاءه في وقتنا الحاضر لمجرد أنه يأبى عيش العبيد، ولمجرد أنه يرفض السجود إلا لخالقه. إن شعر «جوته» عن «حرية العقل» لا بد أن يكون علامة إنذار لنا؛ لتحذرننا من إبادة هذا الشعب الأبي الكريم، وإبادة جذوره العزيزة، وإلا سنكون بصدد ضياع قيمة غالية الثمن - قيمة لا تقدر بمال - قيمة الحرية، وقيمة الوعي بها.

أحداث على هامش «ديوان الغرب والشرق»

فى أكتوبر ١٨١٣ م، قام ضباط ألمان من ولاية «فايمر» بزيارة «جوته» فى بيته . جاءوا إليه - بعد خروجهم من الحرب فى إسبانيا - محضرين له ورقة تحمل مخطوطة عربية . . . إنها السورة الأخيرة فى القرآن، سورة الناس . وصل شغف «جوته» بهذه المخطوطة - فى خطها العربى والفارسى - لدرجة أنه قام بمحاولات عديدة لتقليد هذه المخطوطة بيده . أما عن محتوى هذه المخطوطة، فهو عبارة عن أمر إلهى للرسول «محمد» باللجوء إلى الله والاحتماء والإعانة به من شرور الوسواس الحقيرة . واللافت للنظر، أن لحظة وصول المخطوطة إلى يد «جوته»، كانت بمثابة إشارة أو علامة تلقاها الشاعر الألمانى ؛ وكأن الله يأمره هو بهذا الأمر؛ وأكبر دليل على ذلك، ما كتبه فى مطلع «ديوان الغرب والشرق» الذى عكس أمراً صادراً عن صوت عالٍ، يأمر باللجوء إلى «السيد» .

ومن الأحداث الأخرى، التى صاحبت «جوته» فى أثناء كتابته لـ«ديوان الغرب والشرق»، قدوم الضباط البشكيك المسلمين إلى «فايمر» فى ديسمبر ١٨١٣ م؛ حيث جاءوا من ضمن ضباط الجيش الروسى

المتحالف مع ألمانيا آنذاك ضد نابوليون . لم يكن «جوته» يتوقع أبداً مخالطته لهؤلاء المسلمين الذين وصفهم فى رسالة له - كتبها إلى صديقه «فريدريش فيلهيلم هاينريش» - قائلاً : «لديهم هيبة خاصة» ، «هم ضيوف أحباء» . بل إنه سارع فى استضافتهم فى بيته ، كما هو مكتوب فى مذكراته اليومية ؛ حيث تم فى هذه الاستضافة تبادل الهدايا . . . فتلقى «جوته» سهاماً وأقواساً . . . قام بتعليقها على مدفأته ، محتفظاً بها حتى موته .

تم إعداد قاعة پروتستانتية كبيرة للبشيك ؛ لكى يقيموا فيها صلاتهم الجماعية - صلاة الجمعة . وبالصدفة ، وقع موعد إقامة أول صلاة جمعة لهم فى «فايمر» فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٨١٣ م ، وهو اليوم الذى يتوافق مع «ليلة الميلاد» التى احتفل بها المسيحيون فى كنيسة «بيتروباوكس» الواقعة على مقربة من القاعة البروتستانتية . أما الكنيسة ، فكانت هى بذاتها التى كان يلقي فيها «هيردير» خطبه حتى وافته المنية فى عام ١٨٠٣ م . لقد كان «هيردير» ذلك المعلم الذى ربّى تلميذه النجيب «جوته» على التسامح تجاه الآخر ، والذى دفعه إلى دراسة القرآن ، كما كان له الفضل الكبير فى ترسيخ تلك العقلية الليبرالية - تجاه الإسلام وتجاه العالم العربى - فى عقلية الشاعر الشاب . وها هو يأتى اليوم - بعد عشرة أعوام من موت «هيردير» - ليقوم المسلمون بصلاتهم بجوار كنيسته ؛ وقد اشترك «جوته» فى هذه الصلاة ، واصفاً هذا الحدث الفريد فى رسالة له فى يناير ١٨١٤ م : «لقد حدث فى وقتنا أمور لم يكن للأنبياء أن يسمحوا بفعلها .

فمن كان يستطيع أن يتخيل أن تصير القاعة الهروتستانتية مكاناً للعبادة المحمدية، وأن تُتلى فيها آيات القرآن.. نعم لقد حدث هذا بالفعل.

وفى رسالة أخرى، كتبها «جوته» إلى ابنه «أوجوست»، ذكر الشاعر الألماني حادثة فريدة من نوعها، وهى قبول الكثير من السيدات المتدينات على المكتبات لشراء ترجمات القرآن؛ وهو الأمر الذى يعكس مدى التأثير الذى مارسه «جوته» على محيطه ومجتمعه بخصوص النظر إلى البشيك.

لم يكن الأمر صدفة، حينما افتتح «جوته» «ديوان الغرب والشرق» بتلك الافتتاحية المسماة بـ «الهجرة» أو Hegire فى نفس العام الذى قدم فيه البشيك إلى «فايمر». فقد رأى «جوته» المسلمين مجتمعين فى صلاتهم، كما يفعل أصدقاؤهم المسيحيون. فكلهم فى النهاية يتجهون أو «يهاجرون» إلى خالقهم الواحد، حتى ولو فى ظل طقوس دينية مختلفة.

كان اندلاع الحروب - وقتها - فرصة استثمارها «جوته» جيداً لتناول الحوارات الغربية الشرقية فى «ديوان الغرب والشرق»، مبتدئاً - كما قلنا سالفاً - بالافتتاحية الشعرية الكبيرة «الهجرة»، التى تذكرنا من خلال عنوانها بهجرة النبی «محمد» من مكة إلى المدينة، والتى ارتبطت أيضاً بيوم ٢٤ ديسمبر ١٨١٣م، الذى شهد فيه «جوته» قمة التسامح بين الديانتين: الإسلام والمسيحية.

وكان أيضاً من ضمن الأحداث ، التى أثرت على «جوته» فى أثناء كتابته لـ«ديوان الغرب والشرق» ، تلقيه لمخطوطات عربية أخرى ، بعد المخطوطة الأخيرة التى كانت تحتوى على السورة الأخيرة من القرآن . فقد فوجئ «جوته» بمخطوطات عربية أخرى ، تنهال عليه ، بدون سابق إنذار أو إعداد . أما من أتاه بها ، فهو تاجر ألماني من «لايتسيج» ، لجأ إليه لكى يساعده على إصدار أكبر عدد من المخطوطات العربية والفارسية والتركية ، المطلوبة من قبل المكتبة الألمانية . وكانت هذه فرصة جيدة ، سنحت لـ«جوته» لكى يشغل نفسه بالمخطوطات القرآنية ، وكذلك بما كتبه الشعراء العرب والفرس ، قبل أن يقع فى يده ديوان «محمد شمس الدين حافظ» (١٣٠٠-١٣٨٩ م) فى عام ١٨١٤ م ، الذى كان قد تُرجم على يد «جوزيف فون هامارز» .

كل هذه الفرص - غير المرتقبة - كانت عبارة عن تمهيدات لـ«ديوان الغرب والشرق» . فكان وقوعه على ديوان «حافظ» دافعاً جديداً له ؛ لكى يتعامل مع الإسلام من منظور فى منتهى السمو والرقى . إلا أن ديوان «حافظ» لم يكن ليترك هذا الأثر على «جوته» بدون تعرفه - قبل ذلك - بأناس مسلمين مثل البشكيك ؛ وكذلك وقوع عينيه على المخطوطات القرآنية ، مثل وقوعهما على دواوين الشعراء المسلمين .

«ديوان الغرب والشرق» :

فى مايو ١٨١٤ م ، ظهرت أولى إصدارات «ديوان الغرب والشرق» ،

ذلك العمل الذى ترسخ وتجذر كلية فى الوعي الإسلامى ، فى محيطه ، وفى إدراكاته . لم يكن لهذا العمل أن يتشكل أو يتكون أو يخرج إلى النور بدون علاقة «جوته» الإيجابية والمفتحة تجاه الإسلام، التى بدأت منذ صباه، والتى تجلت فى أشعاره، وأخيراً التى انبنت على أساس واسع ومتوسع من العلم والمعرفة . وقد أفصحت هذه العلاقة عن نفسها - فى سابقة فريدة من نوعها - حينما كتب «جوته» أحد تعليقاته على «ديوان الغرب والشرق» فى عام ١٨١٦م قائلاً: «إن مؤلف هذا العمل لا ينفى الفكرة بأن يكون هو ذاته مسلماً» . وهى مقولة استفزت معظم الألمان الذين كانوا يعيشون فى بلده، فى ذلك الوقت .

ولنفتح سويًا «ديوان الغرب والشرق» ، لنرى أول ما واجهنا به «جوته» عن نظرتة للعالم والكون :

الشمال والغرب والجنوب تتناثر وتنهار

العروش تتل، والممالك تضطرب

فهاجر أنت إلى الشرق الطهور

لتستروح نسيم الآباء الأولين

ولنلاحظ هنا ، أن الافتتاحية «الروحانية» التى بدأ بها «جوته» ديوانه - والتى تتحدث عن الأصالة الدينية فى الشرق النقى - تندرج تحت عنوان «الهجرة» (كما ذكرنا سابقاً) ، أى ترتبط ببداة هجرة النبى محمد ﷺ

إلى المدينة فى عام ٦٢٢ ميلادياً ، وهو عام تأسيس الدولة الإسلامية ، كما هو عام تدشين التاريخ الإسلامى . وكذلك ترتبط الافتتاحية - كما قلنا فى السابق - بحادثة «عيد الميلاد» ، وهى الليلة التى يُحتفل بها أيضاً بتأسيس عهد جديد فى الديانة المسيحية ، حيث ميلاد المسيح . وهو أيضاً اليوم الذى شهد أول صلاة جمعة للبشيك فى القاعة البروتستانتية بولاية «فايمر» .

ومن المفارقات العجيبة ، أن يترعرع «جوته» وأن يتربى فى وسط جو أسرى بروتستانتى ؛ فقد ربته أم شديدة التمسك بالإنجيل ، ومن ثم احتسب نفسه من ضمن الجماعات البروتستانتية ، المعروفة بتمسكها من معرفة الكتاب المقدس . وقد يصف «جوته» نشأة المسيحى المتمسك بالإنجيل فى «ديوان الغرب والشرق» ، فيقول : «إنه ملزم بتلقى تعليم عال ؛ لأن عقله مشغول على الدوام بكل ما هو عزيز وكريم» . إن التقاء الإسلام مع المسيحية - كما صورته «جوته» فى ديوانه - يعبر عن رغبة الشاعر فى عبور التناقضات العدائية بين الديانتين ؛ وجمع هذين العالمين الروحانيين تحت مظلة السلام ، أو قل تحت برنامج السلام .

وكذلك يتحدث «جوته» - من واقع تجربته كمسيحى متدين - عن المشاعر الأخوية التى كان يحملها للشاعر الفارسى «شمس الدين حافظ» ، وهو المعروف بلقب «حافظ» ، ذلك اللقب الشرفى الذى عكس حفظه للقرآن كله ، ومن ثم دل على إخلاصه الشديد للإسلام . وقد يفاجأ القارئ هنا بتلك المشاعر ؛ لأن «حافظ» كان يعيش فى القرن الرابع

عشر الميلادى؛ بلغة أخرى، لقد مات منذ زمن بعيد، أى قرابة أربعة قرون قبل ميلاد «جوته». وبالرغم من ذلك، نجد الأخير يؤلف عنه «كتاب حافظ» - من ضمن كتب «ديوان الغرب والشرق» - الذى تخيل فيه حواراً كاملاً بينه وبين ذلك الشاعر الفارسى. بل إن «جوته» وصفه بكونه «توأماً» له. فهل هناك قرابة أشد التصاقاً من قرابة التوائم؟ أليس هذا عجيبيًا...؟ أن يشعر «جوته» بتلك الأخوة غير العادية - أخوة التوائم - تجاه إنسان مات قبله بأربعة قرون؟ أليس هذا لافتاً للانتباه، ومثيراً للدهشة... أن يحمل «جوته» كل هذه المحبة لإنسان كان بعيداً عنه كل البعد؛ بعداً زمانياً، وبعداً مكانياً، وبعداً لغوياً، وأيضاً بعداً تقليدياً. باختصار، لقد كتب «جوته» «كتاب حافظ» ليرى القارئ إلى أى مدى يمكن أن تصل حميمية العلاقة بين المسلم والمسيحى. وديوان «جوته» - وكلمة (ديوان) تعنى هنا جمع البشر - لم يقتصر فقط على «التوائم» بل امتد ليشمل حوارات متعددة الأشكال بين الغرب والشرق.

وهنا يأتى أمامنا عدد غير قليل من الشخصيات الشرقية: النبى «محمد»، شاه «عباس الكبير»، «تيمور الفاتح»، السلطان «سليم»، الشعراء «حافظ»، «الفردوسى»، «المتنبى»، «حاتم الطائى»، وغيرهم. فى «ديوان الغرب والشرق»، يعطى هؤلاء آراءهم، مثلما تعطىها الشخصيات غير المعروفة، ابتداء من الجواهرجى والتاجر فى البازار إلى الشحاذ. ويمكن القول إن الديوان - بكتبه الاثنى عشر - كان حافلاً بنماذج كثيرة وبأمثلة عديدة عن كيفية وإمكانية الحوار بين الغرب والشرق.

هذه الثقة العالية فى تصورات الشرق ومعتقداته، التى أبرزها «جوته» فى «ديوان الغرب والشرق»، لم يكن لها أن تظهر بدون ثقة مؤلفها فيما يكتب، وبدون إدراكه العميق لما يكتب. فكيف كان للـ «ديوان» أن يظهر فى الأفق، إذا لم يكن مؤلفه نفسه يتحدث بلسان الواثق المدرك بما يقول؟ بلغة أخرى، لم يكن يتسنى لـ «جوته» أن يضبط تعامله مع المسائل الدينية، وأن يتحرك بثقة وبنضج بين الجد والهزل، بدون جمعه بين اليقين والإدراك. وكذلك، فإن عدم ظهور أى «نشاز» فى «الديوان» كان مرجعه أساساً إلى تقديره العالى والمتميز للإسلام. ولنتذكر سويًا تلك الأشعار، التى أشار فيها «جوته» إلى «القرآن المقدس»؛ ولنقرأ معًا هذه الأبيات:

هل القرآن قديم

شئىء لا أسأل عنه

هل هو مخلوق؟

شئىء لا أدريه

أما كون القرآن كتاب الكتب، فهذا ما أعتقد ويفرضه واجبى كمسلم.

الكثير من أبيات «الديوان» تعتمد - كما ذكرنا سالفًا - على القرآن؛ فبعض الأشعار تتشكل فى نصفها الأول مما ذكره القرآن، وتتشكل فى نصفها الآخر من أبيات «جوته» التى كان يلحمها بأبيات القرآن. فعلى

سبيل المثال، نجد في «كتاب المغنين» أبياتاً أوصلها «جوته» بالسورة الأولى من القرآن (الفاتحة)، وتحديدًا بالآية السادسة التي تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]. فتقول الأبيات:

ينازعنى الغى والضلال

لكنك تعرف كيف تهدينى

اهدنى أنت في أعمالى

وفى أشعارى الصراط المستقيم

لقد استخدم «جوته» كلمة «الهدى» التي وصفها المسلمون - منذ زمن بعيد - بـ«الشريعة»، أى الصراط المستقيم؛ وهذا هو المعنى الحقيقى لكلمة «شريعة»، التي أعيد تفسيرها مؤخرًا من قبل الإسلام السياسى. ونجد فى مقطع رباعى آخر نفس المزج بين آيات القرآن وبين أبيات «جوته»، معطياً دليلاً آخر عن المزج «الغريب الشرقى»؛ فهذا هو أبيات تلقى الضوء على السورة الثانية من القرآن (البقرة)، وتحديدًا على الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]..

لله المشرق

لله المغرب

الأرض شمالاً

والأرض جنوباً

ومن هذه المقولة «الغربي الشرقي» - التي آمن بها «جوته» إيماناً عميقاً - استطاع الشاعر الألماني أن يُخرج مخطوطتين عرييتين، أظهر فيهما جمال الخط العربي، ذلك الخط الذي أبهره، فأَكَنَّ له في نفسه منزلة عظيمة. ونحن اليوم، ندرك جيداً أن تحفز «جوته» لكتابة تلك الأبيات إنما كان ينبع - أولاً وأخيراً - من تأثره بالقرآن. وقد تعلم «جوته» الاقتباس من القرآن، واستخدامه في الشعر، من «جوزيف فون هامار» صاحب كتب «أسرار الشرق المدفونة»، التي قال في مطلعها:

قل: لله المشرق ولله المغرب

يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

اقتباس من (سورة البقرة)

إن «هامار» - الذي كان له دور كبير في إخراج الخط الشرقي القديم - استخدم اقتباسات القرآن ليضعها في كتبه الستة حول «أسرار الشرق المدفونة» التي ظهرت فيما بين ١٨٠٩ و ١٨١٨ م. بل إن كلمة «القرآن» قد تم وضعها من قبل «هامار» على الصفحة الأمامية - صفحة العنوان - التي تدرج تحتها الكتب الستة، والتي لا بد أن تكون قد جذبت انتباه «جوته» منذ الوهلة الأولى. وقد ذكر «جوته» «أسرار الشرق المدفونة» لأول مرة - في مذكراته - في يوم ١٢ ديسمبر ١٨١٤ م.

لقد كانت قناعة «جوته» بالمزيج «الغربي الشرقي» مترسخة في عقله، وفي وجدانه، لدرجة أنه كان يكتب لأصدقائه الكاثوليك المتزمتين، ومنهم «بواسيريه» و«لافاتير» الذي أشرنا إليه سابقاً. فكان - على سبيل المثال - يكتب إليهما قائلاً: «إنه يومياً يتم قراءة (هومير) و(حافظ)». وبالرغم من أن هذا الكلام لم يكن يروق للصديقين الكاثوليكين المتزمتين، إلا أن «جوته» لم يكن ليعاملهما إلا بكل رفق وبشاشة؛ فأعطى لنا مثلاً حياً عن العقلية الليبرالية المتفتحة مع الشعوب والديانات الأخرى، أو كما نقول اليوم، العقلية «العالمية» و«التعددية الثقافية».

ولم يعبأ «جوته» فقط بالشرق والغرب، وإنما عبأ أيضاً بالشمال والجنوب؛ فهذا هو يقول: «وكذلك الشمال مثل الجنوب لم يخف عن عينه أبداً». إن إصرار «جوته» على ذكر الجهات السماوية الأربع في مقولته الشهيرة «لله المشرق» كان نابغاً - في الأصل - من إيمانه المتجذر في أعماقه بوحدة الخلق الإلهي؛ ومن ثم حرصه على توضيح هذه الحقيقة، وإبرازها للجميع. وفي هذا الصدد اكتشف شاعرنا الألماني رابطاً آخر بين الشرق والغرب، حيث ربط بين مقولة القرآن ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وبين رمز المسيحية في الغرب - وهو الصليب - إذ تخيل خطوط الشرق والغرب في تعارضها مع خطوط الشمال والجنوب في صورة صليب.

كذلك تصور العالم وكأنه كرة أرضية تسكن في يد الإله؛ ورمز الكرة الأرضية مترسخ في العقلية المسيحية؛ فإذا ما قسمت من قبل الخط الذي

يربط بين الشرق والغرب (أو من قبل الصليب الذى يتخيله) فإنها تصوير نصف دائرة، التى تمثل - مرة ثانية - علامة الهلال . . رمز الإسلام . باختصار، لقد كان يرى المسيحية والإسلام كوحدة واحدة لا يفصلها شىء . وبالرغم من أن عديداً من اللوحات والصور - فى القرون الوسطى - كانت تعكس توافق الدائرة مع الصليب، كرمز مسيحي للعالم، فقد كان يراه «جوته» رمزاً للوحدة .

طبعاً، لا يمكن الافتراض بأن «جوته» كان يعلم كل ذلك عند لحظة اكتشافه للقرآن؛ فالتعرف على الأجنبى مثل التعرف على الذات . . تعرف طويل وشاق، تتدافع فيه آلاف المسائل مع بعضها البعض بقوة البرق؛ إلا أنه ما من شك، أن تعرف «جوته» على نفسه قد تم تلقائياً عند قراءته للقرآن؛ فكانت مقولة ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ هى رمز أعماله وكتاباتة .

وكان مما لفت انتباه «جوته» - وكتب عنه فى «ديوان الغرب والشرق» - تقليد الأحجية الشرقية الذى أفرد له عنواناً فى «الديوان» . لقد تعامل مع تلك الأحجية، واستقى معلومات حولها من الكتابات الموجودة فى «أسرار الشرق المدفونة»؛ فوصفها على أنها «وريقة مكتوب عليها دائماً أدعية مخلصة ومؤمنة» . وبعدها عرف أن المسلمين يهتمون بتعليقها على أجسادهم (حول العنق، أو الذراع، أو الرأس)، كنوع من الحرز ضد جميع وشتى أصناف الآلام . كان مفتوناً بذلك التقليد الشرقى العجيب

الذى كان يضع وسيلة سحرية للعلاج على وريقة صغيرة . اقتنع بهذه الأحجية، إلا أنه كان يرى - فى النهاية - الحجاب الحقيقى متمثلاً فى «الكلمة الطيبة» وفى «التوازن الروحى»، وأن السلام لا يتحقق إلا عند الله .

كان «للشمال» موقع خاص فى منظور «جوته» الذى ينتمى فى نهاية الأمر إلى بلاده ألمانيا التى تقع فى الشمال . وكما يحدث فى داخل قشرة البندق، صوّر لنا «جوته» مسيرته الروحية، وكيف تمددت وتطورت، وكيف خرجت إلى العالم بعد احتكاكها بالشرق؛ فكانت النتيجة توصله إلى حقيقة مفادها أن الشرق والغرب قطبان يتدرجان سوياً فى داخل الكون، وأن السلام والأمان يتواجدان عند الله مالك المشرق والمغرب . لقد اعترف شخصياً - من خلال «كتاب الأحجية» - بأنه بالرغم من كل الآلام والشكوك التى كانت تحاصره وتفاجئه، إلا أنه استطاع العثور - فى وسط كل هذا الضنك - على سلام جديد، وجده عند الإله؛ وهو الهدف الذى وضعه أمام عينيه، والذى طالما تجلّى فى «ديوان الغرب والشرق»، ثم بعد ذلك فى «كتاب الجنة» .

ولكن هل فعلاً كان «الشمال» و«الجنوب» يسكنان بسلام فى قلبه وفى بخلده؟ الحقيقة هى : أننا دائماً نميل إلى التحدث عن «جوته» وعن «تطوره الظاهرى» بدون الالتفات إلى أعماقه، التى كانت حافلة بالصراعات والسجلات بين «الشمال» و«الجنوب»، بين «جوته الشمالى

الألماني» وبين «جوته الجنوبي الكلاسيكى». كان يرى المسافة بين صباه وشبابه وبين تحوله إلى سن النضج والعقل، كان يدركها بقوة، وقد عكس كتابه «فاوست» فى عام ١٧٩٧م هذا الأمر بمنتهى الوضوح، كما عكس حقيقة أن هذه المسافة لا يمكن عبورها إلا من خلال الأزمات والهزات القوية. ومن ثم، فإننا لا يمكننا القول أو الافتراض بأن «الشمال» و«الجنوب» كانا يخلدان فى سلام وأمان..فى داخل نفسه.

فحتى لحظة كتابته لـ «ديوان الغرب والشرق» كانا المفهومان يتعاركان فى داخل عقله وقلبه.. ويضربان بعضهما البعض بمنتهى القوة. فى البداية، كان يذم «الشمال»، إلا أنه بعد اكتشافه للشرق، توازن وانضبط لديه الأمر، وتعادلت عنده المسألة، التى كان من آثارها المباشرة توجهه غير المتوقع نحو الرسامين الفطاحل فى هولندا والدانمارك والسويد، الذين وصفهم من ضمن رحلته على نهري «الراين» و«المالين»، فى الوقت الذى كان يحتفظ فيه بديوان «حافظ» فى حقيبته. لقد ارتأى «الحقيقة؛ فوضع التضاد فى قالب واحد، جاعلاً التناغم والانسجام أساس العلاقة بينهما؛ فوضع الفن «الشمالى» مع نظيره «الجنوبى» على نفس الخط». باختصار، لقد حول نفسه تجاه قانون القطبية والتدرج.

من خلال تجربته مع الشرق، تفتحت مدارك «جوته» نحو الحقيقة، وتحرر عقله من أمور كثيرة لم يكن يفهمها، ولم يكن يستوعبها. فكانت هذه التجربة هى المادة الخام التى كان دوماً يستخلص منها حقائق الأمور؛

وظل على هذا الأمر حتى وافته المنية. ومن ثم، نجد فرقاً هائلاً بين أعماله الكلاسيكية المثالية التي كتبها في بداية شبابه - مثل «فاوست» و«سنوات الرحالة فيلهيلم» - وبين ما كتبه بعد وصوله إلى سن النضج والرشد؛ حيث شهدت مقاطعه الشعرية الرباعية تحولاً ملحوظاً في صنعته الفنية وصياغته الشعرية. بعد احتكاكه بالشرق والقرآن، اجتثت من داخله الكثير من الحواجز التي كانت تخبئ وراءها ميله الفطري نحو الكونية. ومن ثم، كان دائماً يدين بالفضل لتلك «التجربة الشرقية» الرائعة.

ومن الجدير بالذكر، أن هذا الانفتاح صوب الكونية احتوى في الوقت ذاته على درس كبير لجميع البشرية، وهو: أن يتجه المرء في أمن وسلام - حتى ولو بالمعنى السياسي - نحو الكونية الإلهية والروحانية. ألا يكمن هنا روح «الديوان» كله؟ بلى، فهو ذاخر بالوصايا - بطريقة غير مباشرة - نحو التحول إلى الأسمى. فإعطاء العلم هو في النهاية دافع إلى التحول؛ وأخذ العلم هو في النهاية تحول إلى الأسمى، وقد أشار إليه في «كتاب الجنة»، حيث وصف التدرج من الدرجة الأساسية إلى الدرجة المقارنة، إلى الدرجة العليا والأفضل. هذا بالإضافة إلى تخيله لوصية النبي «محمد» في هذا الصدد؛ فكتب على لسانه قائلاً: إنه ينبغي وجود تعارف بين الشرق والغرب في قالب إسلامي كله تسامح وانسجام، أو في ظل كونية مسلمة تعترف بكل الجهات الأربع، وهو ما كان يعني لـ «جوته» الشرط الأدنى لتحقيق الإنسانية.

كانت مقولة «لله المشرق» دائماً محل اعتبار «جوته» ؛ فمن خلالها
كان يرى مشيئة الإله التي تحدد فى النهاية أقدارنا ومصائرنا . إن مسألة
الهداية للأقدار والمقادير كانت دائماً شغله الشاغل ؛ ولذلك أكثر من
الحديث عنها فى «ديوان الغرب والشرق» ، وفى «كتب الأمثال» . فمن
ضمن ما قال :

رب الخلق قد دبر كل شىء

تحدد نصيبك، فاتبع السبيل

بدأ الطريق، فأتم الرحلة

أو كما يقول فى بيت آخر فى «كتاب التأمل» :

إن أقمت فى العالم، فركا الحلم

وإن رحلت حددّ القدر طريقك

لقد آمن «جوته» بأن مشيئة الله هى التى تحدد طريق حياتنا، وهى التى
تحدد شكل وجودنا . فنجدّه يعبر عن ذلك فى «كتاب الجبن» قائلاً :

لو قدر الله علىّ أن أكون دودة

لخلقنى دودة

فى «ديوان الغرب والشرق» أشار «جوته» - من خلال مصير
«سوليكا» المعروف سلفاً - إلى الاعتقاد الإسلامى فى القدرة الإلهية ؛

فالمصير المعروف سلفاً لا بد أن يكون له من يعرفه، ومن هو أكثر دراية وعلماً عن المستوى البشرى. هكذا استخدم «جوته» «مصير سوليكا» استخداماً مشرقياً ليدلل على تأييده للرؤية الإسلامية للذات الإلهية، التي أبرزها بأكثر من طريقة في «الديوان». فهذا هو يعظم ويمجد من تعاليم الإسلام حول عقيدة التوحيد في الآيات التالية، ملقياً الضوء على السورة الثانية من القرآن:

لقد اختار إبراهيم سيد النجوم

إلها لنفسه،

وموسى، فى تيه الصحراء،

صار عظيماً بفضل الواحد الأحد:

* * *

ويسوع كان طاهر الشعور، ولم يؤمن،

فى أعماقه، إلا بالله الواحد الأحد.

ومن جعل منه إلهاً،

فقد أساء إليه وخالف إرادته المقدسة.

وهكذا، فإن الحق

هو ما نادى به محمد،

فبفكرة الله الواحد الأحد

ساد الدنيا بأسرها

وكذلك شحذت سورة البقرة انتباهه ، فجعلته يكتب أبياتاً يصف فيها قدرة الإله التى تتجلى وتنعكس كالمرآة من خلال آيات الطبيعة والكون ، ويصف حبه للإله الواحد الذى ليس كمثله شئ ؛ فيقول فى مقطع رباعى فى «كتاب المغنى» :

إنه هو وحده العدل

يهدى الناس جميعاً للحق

فلتسبحوا إذن بهذا الاسم المكين

من بين أسمائه المائة آمين .

لفت انتباهه صفات الإله التى لا تحصى ، وأسماءه العديدة التى تصل إلى المائة ، وتجلى هذا الانبهار - أحسن ما يكون التجلى - فى حديثه مع «إكيرمان» ، الذى كتب له فى ٨ مارس ١٨٣١ م (قبل موته بعام) قائلاً : «طفلى العزيز! ماذا نعلم نحن عن فكرة الألوهية؟ وماذا يمكن لفاهيمنا الضيقة أن تقول عن الذات العليا؟ إذا أردت ، مثل الرجل التركى ، أن أذكر الذات الإلهية بمائة اسم ، فلن يكون ذلك كافياً ، مقارنة بالصفات التى لا تعد ولا تحصى ، والتى لم أذكرها بعد» . ومن المفترض - فى ظل هذا السياق - أن يُذكره هذا التصور الإسلامى عن أسماء الله المائة بمفهوم

الألوهية لـ«سبينوزا» الذى قال: «هو الإله الواحد، صاحب الصفات غير المحدودة، التى لا يتصور منها الإنسان إلا القليل، ولا يعلم منها إلا الزهيد».

وفى حديثه مع «إكيرمان»، تطرق إلى الربط بين «المائة اسم» وبين «القوة الخفية المؤثرة» التى تحدد الأقدار والمصائر، والتى تحدد سعادتنا أو شقاءنا. لقد استولى الإسلام، كما استولى «سبينوزا» (أحب الفلاسفة إلى «جوته») على عقل الشاعر الألمانى . . على خلده . . على لبه . لقد شغفته الرؤية الإسلامية للذات الإلهية، كما شغفته الفلسفة السبينوزية حول القدر والمصير. ومن ثم، كان تنقله كشاعر ألمانى فى مجالات الديانة الإسلامية سهلاً ورشيقاً، مقارنة بالشعراء الآخرين.

وبجانب هذه الرؤية، وبجانب هذه الفلسفة، كانت هناك شخصية الرسول «محمد» التى لم تكن أقل تأثيراً عليه، فكانت بمثابة المدفأة التى تدفئ جسده. وكان «ديوان الغرب والشرق» شهيداً على ذلك التأثير المحمدى؛ وكذلك «كتاب الجنة» حيث أبرز فيه هيئة النبى تشع ضياء ونوراً.

منذ شبابه، وهو مشغول بطبيعة الرسول محمد ﷺ . . بشخصيته . . بذاته . كان كثيراً ما يقارن بين عمل الشاعر وبين رسالة النبى التى تأخذ بأرواح البشر، وتشد جميع الإخوة فى الإنسانية إلى

السمو والعلو. يرى كثير من المسلمين ، القرآن مجموعة من الشعر والنثر والأدب، إلا أن «جوته» ارتأى الأمر مختلفاً ؛ فوضع حدوداً صارمة بين الرسول وبين الشاعر. صحيح أن الاثنين - كما يقول - متعلقان بالله في غبطة وسعادة، إلا أن الشاعر يتمثل عمله أصلاً في «إعطاء المتعة» لكونه فناً يسعى إلى التعبير عن فنه بشتى الصور والأشكال، بدون حدود، وبدون عقبات، فيصير تأثيره في النهاية خالياً من الأهداف. وعلى العكس، ينظر الرسول ويصوب عينه تجاه «هدف محدد». فهو في الأساس يريد أن يبلغ رسالة، وأن يوقظ إيماناً، مستخدماً أبسط السبل وأيسرها. وهنا يكون الأسلوب المبسط الهادئ هو المطلوب. . من أجل لم شمل المؤمنين، ويعلل «جوته» ذلك قائلاً : «الإنسان متعدد الألوان والأمزجة لا يصدق أحد. . ربما يعرفه» .

في هذا السياق، وصف «جوته» - في «فصل محمد» - القرآن بمنتهى التأنى، ذاكرة أنه ليس له مثيل على وجه الأرض. وعندما تقدمت به السن، صار أكثر إدراكاً للفارق بين الرسول والشاعر. لقد أدرك أن الرسول لا يحتاج إلى وسائل لتبليغ رسالته، بينما يكون الفنان في أشد الحاجة إلى الوسائل لتبليغ فنه.

من خلال «الفصل محمد» يمكن لنا أن نرى مدى الاحترام الذي أكنه «جوته» - في سن النضوج والكبر - تجاه رسول الإسلام. كما يمكن لنا أن نلمس النقاط الأساسية في الإسلام التي تعاطف معها أشد ما يكون التعاطف، والتي أيدها أشد ما يكون التأييد. كان من بين هذه النقاط،

الخضوع والاستسلام لمشیئة الله التي طالما سلط عليها الضوء . كان يرى أن «خصوصية الإسلام» تتمثل في ذلك الاستسلام. لقد كانت «خصوصية الإسلام» هي الموضوع المفضل لديه، والمحبيب لقلبه على الدوام، فكان ينهل منه باستمرار بدون إحساس بشعب أو اكتفاء.

بعد ظهور «ديوان الغرب والشرق»، بدأ «جوته» في كتابة مجموعة من الأشعار الشرقية، سارداً فيها أكثر ما شد انتباهه في عالم الفكر الإسلامي؛ ولم ينس طبعاً في هذا الصدد أن يذكر «الاستسلام الحتمي لمشیئة الله وقدره». وبتركيز غير معتاد، تحدث في «ديوان الأرقام والمعاملات» عما يتميز به الشرق من فنون التأمل والتفكر، موضحاً كيف استخدمها بمتهى البراعة والفطنة في مواجهة أزمات الحياة. فقال في ذلك: «أينما تشد علينا أزمات الحياة الدنيا، وتقف أمامنا بمرارتها وقسوتها، يصبرُ لزماً علينا الانحناء إلى الله، والاستسلام والتضرع إليه؛ فالاستسلام هو القانون الأعلى في هذه الحالة... القانون الأعلى على المستوى السياسى، والقيمى، والدينى».

وفي نفس الفصل، أفصح عن فكرته حول «الاحتفال بتلك الليلة المقدسة التي تنزل فيها القرآن على الرسول محمد ﷺ». إلا أن وفاته لم تمكنه من الإتيان بهذا الأمر. وبعد ٨٨ عاماً من موته، وقعت يد «راينر ماريا رايكليه» (١٨٧٥ - ١٩٢٦م) على «بعثة محمد» التي خرجت إلى النور في باريس عام ١٩٠٧م.

«بعثة محمد»

حينما كان يتأمل فى الملكوت
جاءه الملاك على عجل
جاء مباشرة بصوت عالٍ ومعه النور

اضطرب الذى كان يعمل تاجرًا
فهو لم يقرأ من قبل - وقراءة
كلمة تعنى الكثير بالنسبة له
لكن الملاك أشار إليه
وأمره بقراءة ما هو مكتوب
ولم يُبالِ وأمره ثانية: اقرأ

فقرأ، لدرجة أن الملاك انحنى
واستطاع القراءة
واستمع الأمر وبدأ طريقه

نظرة للمستقبل

لقد كان «جوته» - ولنبحله مرة أخرى فى خاتمة الكتاب - أول شاعر أوروبى مرموق منفتح على الإسلام، ومنفتح على القرآن، ومنفتح على العالم العربى بأسره، مستغلاً هذا الانفتاح لإخراج شعراء أوروبيين آخرين من عتمة العقول والأفكار. وبالرغم من تصوراته الإيجابية جداً حول الإسلام، وحبه الجارف للقرآن وللنبي محمد ﷺ - كما بينا فى صفحات الكتاب - إلا أننا لا نستطيع القول أبداً بأنه فعل ذلك بدافع الرومانسية، ف«جوته» لم يكن شاعراً رومانسياً، بل كان واقعياً، ينظر إلى العالم من منظور واقعى، ويرى من خلاله كم المخاطر التى تهدد سلامة البشرية فى حالة الاستقطاب بين الشرق والغرب.

لقد كان متبحراً فى تاريخ الكنيسة الأوروبية؛ وكان دائم التحدث عن الحروب الصليبية، وعن رؤيتها الأحادية المتمركزة حول المسيحية، والمنصبية على العداء لجميع أصناف البشر عدا المسيحيين؛ تلك الرؤية التى وصفها «جوته» بأنها «سدت علينا الأفق بقيودها». ومن ثم، أوصى «جوته» بقراءة تلك الحروب وما حدث فيها على يد كتاب مستشرقين.

بدون شك، رأى «جوته» تشابهاً بين التاريخ الكنسى المسيحى وبين التاريخ الإسلامى؛ فكلاهما - حسب منظوره - لم يتبع معظمه النص الأصيل، كما ينبغى. بلغة أخرى، إن أى إنسان، ذى عقل رشيد وإيمان عال، لا بد وأن يرد تاريخ أى دين إلى أصل نص هذا الدين - إلى الأساس - ليعقد المقارنة بين ما حدث وبين ما كان يجب أن يحدث؛ ساعتها سيرى farkاً كبيراً.

لقد أدرك «جوته» ما كان يفعله المتطرفون مع تابعيهم؛ كانوا يعلمونهم أموراً بعيدة كل البعد عن «النص الحقيقى الخالص» الذى أرسل به النبى «عيسى» أو النبى «محمد». لو كان «جوته» يعيش فى أيامنا هذه، لكان رفع صوته محتجاً ضد أولئك الذين يمثلون الدين أسوأ تمثيل، ثم يسمون أنفسهم بعد ذلك قادة روجيين. أولئك الذين يتكلمون باسم اليهودية، والمسيحية، والإسلام... الذين يُقبلون تابعيهم ضد بعضهم البعض، ويوغرون صدورهم ضد إخوانهم فى الإنسانية، فيشعلون الفتن بين الأديان الثلاثة، ثم يلقون بها فى أتون الحرب... بدلاً من أن يأخذوا بأيدي البشر جميعاً إلى الجبل المقدس؛ ليقوموا جميعاً بالصلاة إلى ربهم الواحد، ورب نبيهم إبراهيم الذى يخرجون جميعهم من نسله.

لقد لمس الشاعر الألمانى الهوة الكبيرة بين معتنقى الأديان وبين الرسائل الأصيلية والأصلية لتلك الأديان. فكتب يقول:

إذا قام المرء بتلاوة القرآن

فيذكر السورة ويذكر الآية
فكل مسلم مجبول ساعتها
على الإحساس بالسكينة والرهبة

الدراويش الجدد لا يعلمون أكثر
فليس لديهم إلا الثرثرة في القديم والجديد
فيزداد الاضطراب يوماً بعد يوم
ما أقدم القرآن وما فيه من سكينة

لم يكن لومه منصباً فقط على تشرذم المسلمين وابتعادهم عن أصل
وروح الإسلام، ولكن انصب أيضاً على تشرذم المسيحيين وابتعادهم عن
أصل روح المسيحية؛ مقارناً بين ما كان عليه المسيحيون عند ميلاد
المسيحية وبين ما صاروا عليه حينما تحولت الكنائس إلى سلطة سياسية لا
يهمها إلا الاستحواذ على متاع الدنيا. بعد موته، وجدناه تاركاً لنا هذه
الآيات:

كل تاريخ الكنيسة
كان مزيجاً من الخبل والتحكم

من أكثر الأمور التي أثارت لديه الشجن والحزن، الانقسام الذي حدث
بين الكاثوليك والبروتستانت. ففي عام ١٨١٦م، كتب موضوعاً، انتقد

فيه الاحتفال الذى أرادت ولاية «فايمر» إقامته، بخصوص مرور ثلاثمائة عام على ثورة التصحيح التى قادها «مارتين لوثر». وبالرغم من كون «جوته» پروتستانتياً فى الأصل، وبالرغم من نشأته فى وسط أسرة لوثرية، إلا أنه تعجب واندesh من موقف البروتستانت - فى ذلك الوقت - الذين تناسوا الصدمات العنيفة والمؤسفة التى اندلعت بينهم وبين الكاثوليك منذ ثلاثة قرون. وقد يتساءل «جوته» هنا: كيف يمكن للمرء أن يفرح فى هذه المناسبة، وهو «يتذكر الانقسام المأساوى الذى حدث منذ عدة قرون»؟ كيف لنا - نحن البروتستانت - أن نحتفل بذكرى ثورة التصحيح بمعزل عن إخواننا الكاثوليك الذين كنا نقف تواء معهم منذ ١٤ يوماً، فى يوم ١٨ أكتوبر، لنحتفل معهم بذكرى وطنية. ذكرى المذبحة الشعبية بـ «لايبتسيج»؟

اقترح «جوته» إقامة حفل كبير يجمع كل الأديان، سماه «حفل الإنسانية النقية». فى هذا الحفل لا يُسأل أحد عن دينه، أو عن معتقده.

«الجميع يذهبون مع بعضهم البعض إلى الكنيسة، الجميع يعملون دائرة حول النار، الجميع يتلمسون الضوء من شعاع واحد، الجميع يرفعون أرواحهم، ليتذكر كلّ منهم عيدهِ، فيحتفل به، ليس فقط المسيحيون، ولكن أيضاً اليهود والمحمديون».

لقد بقيت مقترحاته وأفكاره مجرد أحلام وآمال؛ لم تتحقق فى زمنه، كما لم تتحقق فى زمننا. إلا أن تحقيقها فى زمنه كان من المفترض أن يكون أيسر وأسهل من تحقيقها فى القرن الواحد والعشرين، حيث كانت

البشرية - غربها وشرقها - أكثر استعداداً للعمل بجدية على ترجمة تلك الأحلام إلى واقع ملموس . هذا بالإضافة إلى الجهود التي كان يبذلها في عصره من أجل توسيع آفاق البشر ومداركهم ، ومساعدتهم على تجاوز تحيزاتهم ، وتحطيم عقولهم الأحادية . فتربت تحت يده أنبل العقول التي مشت وراءه في نفس الطريق وفي نفس الركب . بل إن صدهاء قد وصل إلى أوروبا الشرقية ، فبلغ مسامع أشهر الشعراء السلافيين : «ألكسندر بوشكين» (١٧٩٩-١٨٣٧م) الشاعر الروسي المعروف ، و«آدم ميليفيكس» (١٧٩٨-١٨٥٥م) الشاعر البولندي الكبير . الاثنان اتبعنا نفس المنهاج ، منهاج «جوته» في كتابته لـ «ديوان الغرب والشرق» . فقاما بتأليف أشعار ، أظهرها فيها تعاطفاً حقيقياً وعميقاً تجاه العالم الإسلامي . ولم يصل صدى «جوته» إلى أوروبا الشرقية فقط ، بل تجاوز القارة الأوروبية كلها ، مخترقاً الشرق . . مخترقاً آسيا ، وبالتحديد باكستان ، حيث الشاعر والفيلسوف المسلم «محمد إقبال» (١٨٧٧-١٩٣٨م) الذي أُلّف في «لاهور» تحفة فنية اسمها «سفارة الشرق» . . . الصدى الصافي لـ «ديوان الغرب والشرق» .

يا ليت البشرية - بغربها وشرقها - تنصت إلى أصوات هؤلاء العقلاء الأفاضل ، فتنظر إليهم نظرة التلميذ إلى معلمه ، وتأخذ من أفواههم الحكمة والمثال . . بدلاً من إضاعة الوقت والطاقة والجهد في التحدث عن تحيزات قديمة وعتيقة . إذا فعلت البشرية ذلك . . سيكون عالمنا بالتأكيد أفضل كثيراً مما هو عليه الآن .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
• جوته . . رؤية قديمة لعالم معاصر	٥
– اكتشاف الشعر العربي	١٥
• جوته ودراسته للقرآن	٣٥
• الرسول	٤٣
• تأثير فلسفة «سبينوزا»	٥٥
• أحداث على هامش «ديوان الغرب والشرق»	٦٥
– بعثة محمد	٨٦
• نظرة للمستقبل	٨٧